كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

العرب

تاريخ وحضارة

أنتونى ناتنج ● محمود مسعود



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : امينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري ابو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٤٩ - صفر ١٤٠٠ - يناير ١٩٨٠

No. 349 — January 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقي وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج• م• ع• بحوالة بريدية غير حكومية وباقي بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

العرب
تاريخ وحضارة

•

تأليف: أنتوني ناتنج

ترجمة: محمود مسعود

•

دار الهلال

•

الجزء الأول

الفصل الاول :

العالم العربي قبل الإسلام

يصنع الناس التاريخ اكثر مما يصنع التاريخ الناس . بيد أنه لا يمكن وجود جنس أو أمة اتسم تاريخها بالطابع الشخصى أكثر مما اتسم به تاريخ العرب . ففى قرابة اربعة عشر قرنا ، منذ قيام النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تتكشف قصة العالم العربى مثل سلسلة جبال ممتدة ، تمثل قممها الشاهقة الفتوح وعظائم الاعمال التى قامت بها الشخصيات التاريخية الكبرى ـ خالد بن الوليد ، صلاح الدين ، عبد الرحمن الناصر ، بيبرس ، محمد على ، وجمال عبد الناصر ـ وفيما بين القمم اغوار ووديان شديدة الانحدار تعنى تدهورا عميقا بعد أن تغادر كل شخصية كبري المسرح . ولقد تعاقب على حكم العالم العربى عبر القرون ، جزئيا أو كليا ، اسر حاكمة مختلفة ـ الأمويون ، والعباسيون ، والفاطميون ، والأيوبيون ، والمماليك ، والعثمانيون ، واسرة محمد على ، ثم الهاشميون . وعلى نسق متشابه تماما كان مؤسس كل أسرة ينشيء امبراطورية لا يلبث ورثته وخلفاؤه أن يفقدوها عاجلا أم آجلا ، فيقوم على الأثر زعيم جديد واسرة حاكمة جديدة ويتكرر هذا على طول القرون .

ان هذا الطابع من تعاقب الانجاز العظيم والتدهور

العميق ظل يحدث في العالم العربي منذ أن بشر محمد (صلى الله عليه وسلم) بعقيدة التوحيد وبث في صحابته روحا مكنتهم من أن يخرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ويفتحوا فلسطين ومصر وسوريا والعراق وفارس . وقد بلغت الفتوح الأولى ذروتها في عصر الأمويين ، الذين نقلوا مقر الخلافة من مكة الى دمشق وذهبت دولتهم تمد رقعتها عبر آسيا وافريقية وأوروبا حتى اقامت أكبر امبراطورية في تاريخ العالم ـ من منغوليا الى مراكش ، ومن عدن الى جبال البرانس . وبعد ذلك انتقل مركز السلطة فجأة الى العراق ، بعد أن تولى العباسيون الخلافة من أيدي الأمويين ، وانزلوا بهم الانتقام الرهيب واستأصلوهم عن بكرة أبيهم تقريبا من الوجود . ولكن بعد أن تحول العباسيون من بناء الامبراطوريات الى خلق مركز للثقافة والأبهة في بغداد لا مثيل في عصره ، ما لبث العرب أن مالوا الى الدعة بعوامل الترف والثراء ، وبرهنوا على انهم غير أنداد للفاطميين الذين أدالوا دولتهم من مصر ، وللصليبيين الذين غزوا فلسطين ، أو لحجافل المغول بقيادة هولاكو وتيمور لنك التي قهرتهم في فارس والعراق والشام . ثم جاء صلاح الدين وأسرته الأيوبية بدورهم فدمروا الفاطميين وحرروا فلسطين والشام من الصليبيين الغزاة . ولكن حتى امبراطورية صلاح الدين الكبرى لم تلبث ان تمزقت بددا من خلال المنازعات التي نشبت بين خلفائه وسقطت في أيدي المماليك .

وكانت مصر حتى وقتئذ قد أصبحت مركزا جديدا للنفوذ العربي والثقافة العربية . بيد أن هذا لم يكن كافيا لصد المد التالي للغزو عندما هبط الأتراك العثمانيون

زاحفين من الاناضول وفرضوا امبراطوريتهم على العرب من نهر الدجلة الى نهر النيل وفيما وراءهما . وكان مقدرا لمحمد علي ، الضابط في فرقه البانيه بالجيش العثماني . ان يرفع راية الثورة ضد سيطره الأتراك ، وكذلك قدر لجماعه من العرب المسيحيين في الشام أن يوقظوا من جديد العالم العربي من سباته الطويل تحت الحكم العثماني .

وفي خلال الحرب العالمية الاولى انتزعت اسرة الشريف حسين الهاشمية بمكة الاستقلال من الامبراطورية التركية المتداعية ، ولكنها ما لبثت بعد بوادر اولية للنجاح ان وقعت فريسة لدسائس انجليزية فرنسية لطلائع قوة جديدة ناهضة : هي قوة آل سعود حكام نجد في وسط شبه الجزيرة العربية . ولم يبق الآن من هذا البيت الهاشمي سوى حاكم وحيد في الأردن ، يستمد قوته الى حد كبير من الانقسامات بين منافسيه وجيرانه ، في حين قام زعيم سياسي جديد هو جمال عبد الناصر نادى بقومية عربية ثورية جديدة أخذت تنتشر كالنار في مشاعر الجنس العربي .

ولن تحاول الفصول التالية من هذا الكتاب سرد هذا التاريخ الطويل وروايته على وجه التفصيل ، بقدر ما تسعى الى تصوير الشخصيات ، الصالح منها والطالح ، صاحب الشهرة الطيبة وصاحب السمعة السيئة على السواء ، ممن تضافروا في وضع سطور هذا التاريخ . انها ليست سجلا للأحداث بقدر ما هي معرض صور للشخصيات التي جعلت الاحداث محتومة واقعة .

***

وبسبب الافتقار الى الكتابات المدعمة بالوثائق نتيجة

لعدم توفر ورق الكتابة فيما عدا ورق البردى الذى اشتهرت به مصر ، فقد ظل التاريخ العربى المبكر مقصورا الى حد كبير على الروايات والأمثال والقصائد مما كان يتواتر شفاها ولا يجرى تدوينه فى الورق على مدار مئات الأعوام بعد الاحداث التى تشير اليها . ولكن محاولات ناجحة فى القرن التاسع عشر لفك رموز الكتابة المسمارية التى ترجع الى ما قبل المسيحية قد كشفت عن تشابه بين لغة البابليين والأشوريين والآراميين والكلدانيين والفينيقيين والعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش ، تشابه كان له من القوة واسترعاء النظر ما أوحى بأن هذه الأقوام لابد انها انحدرت من اصول واحدة . ومن هذا المنطلق ثبت ان أسلافهم المشتركين كانوا هم العرب الاصليون أو الساميون من قبيلة سام ـ ولفظ (عربى) هو التعبير السامى عن ساكن الصحراء ـ قد عرفنا الآن ان أوائل الاستيطان الجماعى فى جزيرة العرب حدث فى اليمن فى عهد مملكة يعرب ، وهو الجيل الخامس من سلالة سام . وحدث بعد أن أصبح هذا الركن من شبه الجزيرة العربية أضيق من ان يتسع لعدد متزايد من السكان ، ان اتجهت الهجرة العربية الأولى حوالى عام ٣٥٠٠ ق. م. الى الخارج على امتداد الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية ، مرورا بالحجاز وسيناء ، الى أرض مصر ، حيث اختلط الساميون بالحاميين فجاء منهم المصريون الذين عرفهم التاريخ وأقاموا من عناصر العلم والثقافة ما هو أساس حضارتنا الراهنة .

وقد بدأت هجرة اخرى على الشواطىء الشرقية لشبه الجزيرة العربية وانتهى بها المطاف الى الاستقرار

فى وادى نهرى الدجلة والفرات ، حيث اتحد الساميون مع السومريين اللاساميين وجاء منهم البابليون ، وكما حدث مع نظرائهم فى مصر، فقد أخذوا من الثقافة المحلية والعادات والطرائق العلمية ما يفي باحتياجاتهم . وبعد الف سنة أخرى حدثت هجرات أخرى عربية الى الشام وفلسطين ونشأت عنها امم العموريين والفينيقيين . وبعد الف سنة أخرى فيما بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق. م. ، قدم العبرانيون الرحل الى فلسطين وأقاموا أول ديانة فى العالم تدعو الى التوحيد ، وقد أصبحت بدورها أساسا للعقيدة المسيحية . وفى نفس الوقت اتجه الاراميون الى الشام واسسوا عاصمتهم فى دمشق . ولكن الآراميين ما لبثوا فى القرن التاسع قبل الميلاد ان دالت دولتهم أمام الآشوريين من سلائل البابليين ، الذين جاءوا من نينوى وأنشأوا امبراطورية امتدت من ارض بابل (جنوبى العراق) الى ارمينيا فى الشمال وفينيقيا (أو لبنان كما هى اليوم) فى الغرب ، وهى امبراطورية نافست ـ وان لم تفق قط ـ امبراطورية بابل ذاتها . والى الشرق من ذلك سيطر الميديون على فارس الحديثة بأسرها وعلى جزء كبير مما نعرفه الآن باسم باكستان فى حين أصبح شبه الجزيرة العربية قلعة منيعة لعرب الصحراء لا ينفذ اليها طارق .

وقد خلف الكلدانيون لفترة قصيرة الآشوريين فى حكم الشام وجنوب الجزيرة وجنوب تركيا . ولكن استقلال هذه الامبراطوريات القديمة ما لبث فى القرن السادس قبل الميلاد ان لقى نهايته بهجوم البارثيين أسلاف الفارسيين اليوم، أولئك الذين انطلقوا من معاقلهم جنوبى بحر قزوين واستولوا على امبراطورية الميديين فى الشرق ومدوا رقاع ممتلكاتهم لكى تشمل آسيا الصغرى وشطرا من

اليونان ، بالاضافة الى مصر وليبيا وفلسطين والشام والعراف . وبعد قرنين من الزمان عكس اليونانيون الوضع تحت قيادة الاسكندر الأكبر وحلوا محل الفرس ، لكي يسقطوا هم أنفسهم على أيدى الرومان . وبحلول القرن الثاني الميلادى استولت روما على امبراطورية اليونان كلها من ليبيا الى العراق ، ولكنها صدت عند حدود بارثيا وصحارى الأراضي العربية فى الجنوب . وبعدئذ كما هو الحال فى التاريخ الحديث ، ركزت الامبراطوريات الكبرى فى اوروبا اهتمامها على الاراضى الخصبة فى شمال وشرق البلاد العربية ، تاركة الأقاليم الصحراوية المجدبة من شبه الجزيرة العربية وشأنها .

وكانت العلاقات بين جميع السلالات المختلفة للمهاجرين العرب الأصليين وبين حكامهم من الفرس واليونانيين والرومان سلمية ومنسجمة . لقد هيأ الأطراف الثلاثة بعضهم لبعض فرصا طيبة للتجارة ، وبعد اعتناق روما للمسيحية دخل الكثيرون من رعاياها فى الشام وفلسطين ومصر فى الديانة الجديدة . ولكن خلال الاحتلال الروماني نمت أشد التطورات المسترعية للنظر فى مجال التجارة وقد بدأ ذلك فى جنوبى شبه الجزيرة العربية . ذلك ان مملكة اليمن الأصلية كانت حتى ذلك العهد قد انهارت وانقسمت الى مجموعة من الدويلات والممالك الصغيرة : كانت مملكة سبأ هى القوة المسيطرة فيها فيما بين عام ٧٥٠ وعام ١١٥ ق. م. وقد استطاع أهل سبأ ، أو فينيقيو الجنوب ، أن يباشروا عمليات تجارية وافرة الربح كان قوامها اعادة نقل وتصدير اللبان والاقمشة والحرائر الصينية ولآلىء الخليج (العربى) ومنسوجات الهند الى جانب منتجاتهم من التوابل والعطور التى كان يقبل عليها الرومان المشغوفون بالترف .

ولقد دام احتكارهم لهذه التجارة التى كانت تنقلها الجمال على شاطىء البحر الأحمر مرورا بمكة الى مصر والى البحر الابيض المتوسط ـ مدى قرون عديدة ، الى ان وجد الرومان أسعارهم باهظة الى ابعد حد . وقد حدث حوالى عام ٢٥٠ ق. م. ان بطليموس الثاني حاكم مصر عمل فى لهفة لوضع بلاده على الخريطة والاسهام بنصيب فى تجارة النقل مع روما،عن طريق اعادة فتح قناة مهملة كانت قبل ذلك بستة عشر قرنا تربط النيل بالبحر الأحمر . وبعد ذلك اخذت السفن التجارية الرومانية والمصرية تذرع الطريق ذهابا وعودة الى الشرق مباشرة ، جالبة فى عودتها مواد الترف التى عمل التجار العرب على اقناع العالم الغربى على مدار مئات الاعوام بأنه لا يمكن الحصول عليها الا فى بلاد العرب . وهكذا انهار رخاء سبأ وسلطانها .

وكانت البتراء هى الدولة العربية التالية التى ظفرت بالتفوق التجارى بوصفها مملكة النبطيين ، وكانت تمتد من العقبة جنوبا حتى دمشق شمالا فى القرن الأول الميلادى . وكان النبطيون ، نسبة الى نبيوت بن اسماعيل، وهم قبائل رحل جذبتهم الى البتراء مياهها الصافية ، قد قدموا من شرق الأردن حوالى عام ٦٠٠ ق. م. ، وحلوا محل الايدوميين اهلها الاصليين . وفى عام ٣١٢ ق. م. قاوموا غزوا للروم قام به خليفة الاسكندر فى الشام ، ولكنهم بعد قرنين أصبحوا مستعمرة للامبراطور الرومانى تراجان . وبعد ثلاثمائة عام أخرى أعار النبطيون انفسهم للقيام بمحاولة رومانية لغزو جنوب البلاد العربية والاستيلاء على اليمن . ولكن الحملة باد معظمها وعادت الى اليمن موسومة بالعار . وكانت البتراء ، مثل سبأ ،

تجنى مالها من القوافل التى تجتـــــاز ممراتها الضيقة الوردية الحمراء وتجد عند القبائل المأوى والابل البديلة والحماية استعدادا للرحلة التالية . على أنه بعد ان طور الرومان طرقهم البحرية الى الشرق ، متجاوزين شبه الجزيرة العــربية ، ما لبثت البتراء بدورها ان فقــدت مكانتها وحلت محلها بصرى كمركز لطرق القوافل فى بلاد العرب .

ولقد حافظت بصرى حتى نهاية القرن الاول الميلادى على وجود محايد بصــورة غير مستقرة فيمــــــا بين امبراطوريتى روما وفارس المتنافستين . ولكن وقوع هذه المدينة فى مركز استراتيجى على الطــريق البرى بين الخليج (العربى) والبحر الابيض المتوسط طريق الشام ، هيا لها نموا فى الثراء حتى أصبحت واحدة من أغنى البــلاد فى الشرق الأوسط ، وفى عام ٢٦٠ الميــلادى تمكن حاكمها اذينه من طرد الفرس من الشام ومطاردتهم حتى اسوار عاصمتهم طيسفون على نهر الدجلة . وهكذا استطاعت بصرى فى مدى اشهر قلائل أن تحكم باسم روما آسيا الصغرى والشام ومصر . ولكن مجدها كان قصير الأمد . ففى عام ٢٦٦ قتل اذينه وقيل انه لقى مصرعه بغدر من جانب الرومان . واعقب ذلك فترة نصر قصيرة حينما انقلبت ارملته الجميلة الطموحة المعروفة باسم الزباء على روما ، فقــد طردت الرومان من الشام ، واحتلت الاسكندرية ونادت بابنها ملكا على مصر وبنفسها ملكة على الشرق . بيد ان روما ما كان يمــكن أن تهزم بهــذه السهولة ، ففى هجوم مضاد حاسم على بصرى وقعت الزباء فى الاسر واقتيدت الى روما مكبلة باغلال من ذهب خلف المركبة الحربية التى استقلها آسرها .

وفى خلال ذلك حل الحميريون فى عام ١١٥ ق . م .

محل أهل سبأ فى جنوبى بلاد العرب ، وكانوا قبيلة من النجديين فى الجنوب الشرقى ، أسسوا مملكة قدر لها أن تدوم ستمائة عام ، حتي الغزو الحبشي فى عام ٥٢٥ الميلادى . وبسبب تناقص التجارة الى حد ضئيل ، فان الحميريين وغيرهم من القبائل فى جنوب البلاد العربية ارتدوا الى حياتهم البدائية السابقة . كان هؤلاء الأقوام البسطاء الذين لم تمسهم بعد الديانة اليهودية والمسيحية يعبدون ما يتفق واحتياجات وجودهم الضئيل . وخلافا لما كان عليه الفرس الذين تلقوا عن زرادشت عبادة الشمس باعتبارها مقر (الكائن الأعلى) وأن يقرنوا الخير بالضوء والنار ، والشر بالظلام — فان العرب فى تلك العهود كانوا عموما يعبدون القمر . فعند الفارسي الذى كان يعيش فى الأراضى المرتفعة الجبلية كانت حرارة الشمس تغدو محل قبول وترحاب ، أما عند العربي ساكن السهول الصحراوية فان الشمس كانت بمثابة قوة قاتلة ، والقمر يجلب الندى والظلام بعد الحرارة المحرقة والضوء الذى يعمى الأبصار فى النهار . وكان المتواتر فى الأساطير الوثنية أن الحجر الاسود فى الكعبة بمكة ، وكان موضع التقديس قبل الاسلام بزمن طويل ، قد ألقاه من السماء هبل اله القمر ، وكان يعبده الحجاج والمسافرون الذين الهوا القمر . وكانت القبائل العربية الاخرى تحلم بالخصب والظل ، ولهذا فقد كانت تعبد الآبار والكهوف ، والأشجار . وكانت بئر زمزم الشهيرة بقرب مكة محل تقديس خاص ، لما قيل من أنها انقذت هاجر واسماعيل من الموت ظمأ فى القفار .

وكانت حياة العرب الاجتماعية ، مثل ديانتهم ، مرتبطة بمطلب وجود خشن قاس وكثير الخطر ، وخاصة بالنسبة

للبدوى المرتحل (وهو الاسم المشتق من البادية) . وكانت قوانين وعادات القبائل ، وهى التى بقيت الى حد كبير دون تغيير الى اليوم ، وقد حافظت القبائل على أسلوب حياتهسا فى تلك المنساطق الغنية بالبترول اليوم حيث حلت السيارة الـكاديلاك محل الجمل كوسيلة لانتقــال شيوخ القبائل ـ وقد نشأت تقاليد البداوة للتغلب على ما فى الحياة الصحراوية من ألوان المخــاطر والمعاناة .

وكمــا يقــول فيليب حتى فى كتــــــابه (تاريخ العرب) : « ان البدوى ليس من الفجر الذين يطوفون بلا هدف لمجرد التطواف . انه يمثل أفضل تكيف للحياة البشرية مع ظروف الصـــحراء . وحيثما توجد الأرض المخضرة فانه يتجه اليها بحثا عن المرعى . ان الحيــــاة البدوية هي نمط علمي للعيش فى النفود (وهى المناطق الصحراوية الوسطى فى شبه الجزيرة العربية) مثلها مثل الحياة فى البيئة الصـــناعية بالنسبة لدترويت أو مانشستر » .

وطبقا لدورة للحيـــــاة لا تتغير ولا تقبل التغيير منذ العصور السابقة للاســلام ، فان البدوى المرتحل منــذ خمسة عشر قرنا من الزمان ظل يعيش ويأكل ويسافر ويتاجر على نفس النمط الذى تحتذيه سلالته الى اليوم . فالعنصر الأساسي فى غذائه يتكون من التمر ، والدقيق ، ولبن الناقة أو الماعز ـ أما الماء فهو يحتفظ به عادة للابل والمعز والغنم . وكان ملبسه ، ولا يزال ، قميصا يمتد حتى ركبتيه ، وفوقه ازار يتدلى حتى رسغى قدميه ، ويغطى رأسه بشال مشدود بحبل ، يطرحه حول عنقه ووجهه لوقــايته من الشمس ولدفــع الأتربة عن انفه وفمه . وكان مسكنه بالمثــل يهيىء له اقل قــدر من الراحة ويتألف من خيمة مستطيلة واطئة مصنوعة من

الوبر الأسود أو البني لجلود الابل أو الماعز . وكان مورد عيشه يقوم على تربية (أو سرقة) الشياه والماعز والجمال ، وأحيانا الخيل ، وبها يبادل السلع للحصول على الطعام وغيره من الأساسيات الضرورية لحياته .

ومن بين كافة ممتلكاته كان الجمل هو اهمها . فانه لا يهيىء له فقط وسيلة الانتقال التي تتطلب اقل قدر من الراحة — وفي قدرة الجمل أن يمضي بغير ماء مدى خمسة وعشرين يوما في الشتاء وخمسة أيام في الصيف — بل ان لبنه يقدم له أيضا شرابه الأساسي، كما يزوده روثه بالوقود للطهي ، وعندما تنتهي أيامه كدابة للحمل ، فانه يأكل لحمه وينتفع بجلده في صنع أو اصلاح خيامه .

وكانت الزراعة او اى شكل للعمل اليدوى الذى يحد من حرية البدوى المرتحل فى الحركة ادنى مما يليق بكرامته . ان مثل هذا العمل كان مخصصا للقرويين وابناء المدن من أهل الاستقرار ، وللفلاحين والتجار وارباب الحرف الذين يكدون فى الحقول وحول مناضد العمل او الذين يحصلون على رزقهم من قوافل الجمال التى تذرع الطرق باستمرار خلال الحجاز فى طريقها الى البتراء أو بصرى . وكان هؤلاء القرويون وأبناء المدن الذين يعرفون بأهل الحضر يسكنون بيوتا مبنية من الحجر أو الطين ، وكانت تفصلهم شقة اجتماعية واسعة عن أهل البادية الرحل الذين يعدون انفسهم اكثر رجولة وشرفا وارفع مقاما . وهكذا كان البدوى المرتحل اذا الحت عليه ضرورات المحافظة على الحياة او اذا اعوزه المال الكافى لجلب الطعام ولم يستطع الحصول عليه بالاغارة على جيرانه من أهل الصحراوات كان يستبيح لنفسه تماما نهب الفلاح او ابن المدينه للحصول على ضرورياته . وكان

من شأن هذه القرصنة ان تثير حتما اعمق السخط بين العرب المتوطنين ولا ينجم عنها سوى زيادة اتساع وتعميق الشقة القائمة بينهم وبين اخوانهم البدو الرحل . وحتى اليوم وعلى الرغم من ان العرب المتوطنين يتمتعون بحماية قوة بوليسية عصرية وقد أصبح بدوى الصحراء بحكم الظروف شخصا مطيعا للقانون ـ فان بعض الكراهية القديمة لا تزال باقية بين الحضرى وبين البدوى ، لما يكنه هذا لذاك من احتقار لما تقوم عليه حياته من طراوة هى أدنى منزلة من صلابة سليل المنبت الصحراوى ذى الأيد والشدة . ذلك لأن بدوى اليوم لا يزال يعد نفسه ارستقراطى المولد وانه أنبل خلق الله طرا .

لكن ، اذا اعتبر فى الزمن القديم ان الاغارة على جار أو نهب فلاح شيئا مباحا ، فقد كانت تقوم بين المنتمين الى قبيلة واحدة طائفة من القوانين والقواعد تختلف عن هذا كل الاختلاف . فان ما يعد قرصنته مشروعة خارج دائرة القبيلة كان جريمة اذا ارتكب فى نطاقها . ذلك لأن القبيلة كانت اساس المجتمع البدوى . كانت لدى عرب الصحراء هى أسرته ، ونقابته ، وناديه ـ بل فى الواقع جماع دائرته الاجتماعية ، فانها تعطيه الحماية ، والعمل والمركز الاجتماعى ، ومورد الرزق . وبدونها فهو خارج على القانون يعتدى عليه كل انسان . وفى نطاقها يستطيع ان يحيا حياة كاملة آمنة بقدر ما تسمح به بيئته الصحراوية . ومنها يتخذ زوجاته ورفاقه فى القتال ويأخذ ثقافته البدائية وأساسها التدريب العملى فى فنون الحرب ، والصيد ، والاغارة وركوب الرواحل بقدر ما يلزم لبقائه فى الوجود . ومن ثم كان شعاره هو « الكل للواحد والواحد للكل » وهو القانون المطلق الذى يحكم

حياته . كانت (العصبية) أو التضامن القبلي هي محل الاعتبار الأرفع فوق كل ما عداها . ذلك لأن الافتقار الى اى معنى قومى كما نعرفه ، جعل عربى الصحراء يهب حياته وولاءه لقبيلته . وهكذا كانت (العصبية) بالنسبة اليه مساوية لما نسميه اليوم بالوطنية ، وكل من يأثم في حق مفاهيمها ويقصر فى مراعاتها فى كل أفعاله ، يلقى العقاب .

ولم يتغير نظام القبائل عبر القرون الا قليلا ، مثله ذلك مثل قوانينهم وعاداتهم . وكانت كل قبيلة تنقسم ، ولا تزال ، الى عشائر ، تتفاوت اعدادها طبقا لحجمهما ووضعها الاجتماعى .

بيد أنه مهما يكن من كثرة الاقسام والفروع التى تكون فى كل عشيرة ، فان أفرادها جميعا يعدون أنفسهم من دم واحد ، ويدينون بالولاء للقبيلة ، التى يستخدم صيحتها الحربية المشتركة كل فرد فى القبيلة أثناء الاشتباك . ولعلّ أهمية رابطة الدم هذه تتمثل على أشدها بحقيقة ان أعضاء كل قبيلة ظلوا مهما طال الزمن يسمون أنفسهم (بنى) فلان ومن هنا جاءت تسمية بنى غسان فى فلسطين القديمة ، وبنى صخر فى الاردن فى الزمن الحديث . وبالمثل فان رجل القبيلة يشير الى رفاقه من رجال القبيلة بوصف بنى عمه ، فهم عنده اذن بمثابة أبناء الأعمام .

وكانت ممتلكات عربى الصحراء ضئيلة مثل غدائه اليومى . فما يمتلكه هو خيمته الخاصة وقليل من الاثاث البسيط مثل الابسطة وجلود الغنم . اما بصفة عامة فان الحيوانات والأغنام والماعز والابل ، وهى التى تعيش بها قبيلته وتتنقل ، ملكية مشتركة ، وكافة

حقوق الرعي والآبار ملك للقبيلة غير قابل لأي تحويل . ولا مفر في ارض كان المرعى والماء فيها عزيز المنال بصورة بالغة ، أن تقع المنازعات كثيرا بين القبائل بصدد حقوق الرعي واستخدام الآبار . وكما ان القبائل تعد بعضها البعض هدفا مستباحا لسلب الابل والغنم والمعز ، فذلك كانوا يقتتلون حول حق المرعى .

ولكن على الرغم من أن البدو الرحل كانوا كثيرا ما تدفعهم الضرورة الملحة ، وأحيانا الطمع بل حتى دوافع اللهو العبث ، لسلوك مسلك قطاع الطرق لاستلاب كل ما يمكنهم استلابه – فانهم لم يكونوا مجردين من قواعد صارمة معينة للسلوك خارج وداخل قبائلهم على السواء . ومن هذا انه كان مفروضا عند الاغارة على جار عدم سفك الدماء الا في حالة الضرورة القصوى . ومنه أيضا ان القبيلة القوية كثيرا ما كانت تتولى حماية قبيلة أضعف ضد الاغارة عليها من جانب طرف ثالث ، وأن كان هذا لا يتم دون اقتضاء ثمن عيني من أجل الحماية . وأهم من هذا كله هو أن قانون ضيافة الغريب كان قانونا مطلقا . كانت الضيافة عنصرا حيويا في خلق ومسلك البدوي ، وتتجلى أهمية هذا في نص من الشعر العربي القديم كثيرا ما كان يستخدم تحية للضيف القادم بما يشعره انه رغم وفادته فهو رب البيت ، وأصحابه هم الضيوف .

ان صد الضيف الذي جاء يلتمس الطعام والمأوى كان ايذاؤه بعد حاوله ضيفا جريمة في حق الشرف العربي . بل ان أكل الطعام مع مضيفه يجعل الضيف في مأمن من العدوان عليه ، وبالمثل كان من عادة رؤساء القبائل أن يهيئوا حرسا أو مرورا آمنا للمسافرين الذين يجتازون

مناطقهم ، وأي هجوم مباغت على مثل هذا المسافر المتمتع بالحماية فيه مساس بشرف القبيلة كلها. ولا احد يعرف أكثر من البدوى المرتحل مخاطر الحياة الصحراوية وأسفارها وعذاب الظمأ ولظى الشمس المحترقة ومخاطر الهجوم من جانب قطاع الطرق – وهو فى الواقع يعيش دائما مع الموت .

وقامت الثقافة فى ظروف الصحراء الجافية حيث تنحصر جهود كل انسان فى مشكلة البقاء على قيد الحياة – ثقافة بدائية مكرسة للشئون العملية الصرفة مثل الصيد ، والقتال ، وركوب الخيل . ولم يكن فى المدن والقرى كذلك سوى القليل من التعليم بمعناه التثقيفى . وعلى الأولاد حالما يتركون حجر أمهاتهم ان يتعلموا تجارة الأسرة أو حرفتها . لكن لم يكن معنى هذا ان كل عربى فى عهود الاسلام كان أميا تماما . اذ كان يوجد فى كل منطقة مستقرة كتاب وكذلك كان للقبيلة شعراء كانوا محل التوقير لجمال كلامهم وبلاغته وكان شاعر القبيلة كذلك قادرا على اثارة حماس القبيلة عند القتال . ثم ان اللغة العربية بايقاعها الجميل كان ولا يزال لها سحرها فى الهاب مشاعر الجماهير ، ومن ثم كان حتى البدوى الأمى يمكن ان يقضى ساعات فراغه يردد أو يستمع الى رفاقه من ابناء القبيلة يرددون الشعر أو يبدئون ويعيدون فى سرد حكايات وأساطير عن حياة الصحراء ظلت متواترة منذ أجيال مضت . وفى عالم خشن عملى محروم من آية ثقافة كانت اللغة العربية وغناها موضع فخر العربى . فان الرجل الكامل هو ذلك الذى يجمع بين براعات ثلاث هى البلاغة والرماية بالسهام والفروسية ، وكانت أعظم الثلاث هى البلاغة .

الفصل الثاني :

ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم)

عند مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) عام ٥٧١ كان جنوب البلاد العربية ولا سيما الحجاز مباءة للاثم وعبادة الأصنام . كانت مكة ، المدينة الرئيسية في الحجاز ، والتى اشتق اسمها من كلمة بمعنى الحرم حرم بلغة أهل سبأ ، وقد أصبحت غنية كمحطة للقوافل على الطريق البرى من جنوب البلاد العربية ، وكمركز للحج لكل من يعبدون الأصنام على أى شاكلة . وكانت الكعبة تضم ما لا يقل على ثلاثمائة من الأصنام التى تلائم كل ذوق . وكانت الخرافات منتشرة ، والجن محل خوف شديد . بل ان شغف العرب بالشعر كان قد انحط ، اذ انحدرت سوق عكاظ السنوية للشعر الى ما اسماه أحد المؤرخين الاخباريين العرب (بملتقى للرذيلة لا يوصف) . وكانت ممارسات السكر والعربدة والفجور هى الطابع السائد عندما كان الحجيج ورجال القوافل فيختلط حابلهم بنابلهم فى تحلل بالغ من كل قيد . وفى احدى المناسبات حاول حكام اليمن الأحباش القيام بغزو الحجاز لوضع حد لهذه المباذل الوثنية ، ولكن جيوشهم توقفت بسبب وباء نزل بها فى الطريق .

وكانت اكبر قبائل الحجاز فى ذلك العصر قبيلة قريش، وهى القبيلة التي وطدت سلطانها بزعامة قصي بن كلاب سليل ابراهيم واسماعيل منذ عام ٤٤٠ ، وكانت قريش قبيلة ذات قوة وسلطان فى مكة وما حولها . ولا يعرف الا القليل عن اعمال قصي ، ولكنه شخصية بارزة وهو جد النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وكل خلفاء المسلمين على مدار ستمائة عام بعد وفاة محمد كانوا من سلالته المباشرة . وكان أمية مؤسس الأمويين من ابناء احفاده . ولذلك كان حفيده هاشم جدا للعباس ، الذى تسلسل عنه الخلفاء العباسيون . وكان هاشم ايضا ، سلفا للعلويين والهاشميين المحدثين .

وكانت مختلف الرياسات فى مكة عند نهاية القرن السادس مقسمة على أساس وراثى صرف بين الطائفتين الرئيسيتين — بنى هاشم وبنى عبد شمس — من قبيلة قريش . كان صاحب القايه أو صاحب النور المشرف على بئر زمزم هو العباس ، عم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد توفى عبد الله أبو محمد قبل مولد ابنه بأشهر قلائل . وبسبب العوز الناشىء عن هذه الوفاة والمرض والتقاليد القبلية ، وتولت رعايته امه آمنة بنت وهب رضى الله عنهـــا . وجريا على عادة القرشيين فى ذلك العصر بعثت آمنة بابنها محمد الى منازل بنى بكر بن سعد لينشأ فى الصحراء . وهكذا امضى محمد السنوات الست الأولى من حيـاته فى الصحراء . ثم توفيت أمه عقب اعادته اليها ، فكفله جده اولا ، ثم عمه ابو طالب .
وكان ابو طالب يجمع بين دور التاجر وواجبات السيد العظيم الشأن ، وعندما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره صحبه عمه فى احدى رحلات القوافل السنوية التى كان

يقوم بها الى الشام . وقد توقفت القافلة في طريقها عند أحد الاديرة الشامية ، حيث التقى محمد براهب نصرانى يدعى بحيرا عرف فيه علامة النبوة وهى شـــامة على كتفه . وعلى الرغم من ان محمدا كان اميا ، الا انه كان على قدر كبير من الذكاء وحب الاستطلاع والتأمل ، وقد نفر منذ صبوته من اسلوب الحياة فى مكة القائم على عبادة الأصنام والفساد . ومن المحتمل ان عمه كان متعاطفا مع آراء ابن أخيه ولكنه أبقى نواياه طي الكتمان محافظة على مكانته ورعاية لمصالحه كتاجر .

وعندما بلغ محمد الخامسة والعشرين كان قد وصل الى مكان مرموق فى المجتمع المكى . وكان متوسط الطول موفور الذكاء الى حد بالغ ، مهيب الطلعة ، كبير الراس ، عريض الجبين ، أسود العينين ، له لحية سوداء كثة ، وبشرة بيضاء مشربة بحمرة . وكانت ابتسامته تنم عن العطف والمودة ، ولكنه قلما كان يضحك عاليا ، بالاضافة الى ما ظفر به من شهرة كتاجر امين ، ثم عمل فى تجارة سيدة غنية اسمها خديجة كانت تمارس التجارة أيضا ، مما أفضى بها الى الزواج من محمد .

ولـكن فى حين ان زواج محمد وحيـاته العملية كانا مقترنيين بالسلام والسكينة ، فان نفسه كانت تميل الى العزلة والتأمل وكان يلجأ الى غار حراء ويقضى فيه شهر رمضان من كل سنة . وبينما كان يتعبد فى الغار يوما نزل عليـــــه الوحى يحمله اليه جبريل وناداه يقول (اقرأ) فقال محمد (صلى الله عليه وسلم) ما انا بقارىء وتكرر هذا ثلاث مرات ثم تلا جبريل قـــوله تعـالى (اقرأ باسم ربك الاعلى) الخ الآيات الخمس الاولى من سورة (العلق) فرددها محمد وهو خائف . ثم أسرع

الى بيته وهو يرتعد ويقول (زملوني ، زملوني) واسرعت اليه زوجته المخلصة خديجة بنت خويلد فزملته فى ثوب ومضت تطمئنه حتى هدأت نفسه .

وايمانا منها بأنه ينطق الصدق فقد صحبته الى ابن خالتها ورقة بن نوفل الذي يقال انه كان نصرانيا فطمأنه ورقة وقال له ان هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى وخلال الأسابيع التالية عرف محمد (صلى الله عليه وسلم) ان جبريل حمل اليه رسالة ربه فأصبح نبيا رسولا ومضى ينشر رسالته ، وقصر دعوته طيلة العامين التاليين على عشيرته الأقربين وقلة من اصحابه . فدخلت خديجة فى الدين ، كما دخل على ابن عمه أبى طالب ، الذى تزوج ابنته فاطمة فيما بعد . وكذلك اسلم ابو بكر صديقه الحميم ، وعثمان ابن عفـــان وهو ابن عم أبى سفيان ، من بين أوائل انصاره المؤمنين القلائل . ولكن أعمامه تراوحوا بين الحياد الكريم مثل أبى طالب وبين العداوة المضطرمة مثل أبى لهب .

ثم تلقى محمـــد من جبريل فى عام ٦١٢ الدعوة الى المجاهرة برسالة ربه وتوجيهها الى الناس كافة وخاصة لقريش . وسمي دينه (الاسلام) (ومعناه التسلم لله) ، وسمى أتباعه المسلمين ، واعلن الى أهل مكة ان الله هو الواحد القادر الخالق للكون ، وان يوم الحساب آت يوم يهلك الكفار فى نار جهنم وينعم المؤمنون بالجنـــة خالدين فيها . وقد قوبلت دعوته بالضحك والسخرية ، وقال له الدهماء ان كنت نبيا فأت بمعجزات مثل موسى وعيسى . فلما جاوبهم بأن كلمة الله هى المعجزة الكبرى قابلوه بالضحك الصاخب .

ورغم ذلك فان ظهور محمـــد لاول مرة اكسبه نواة

صغيرة من المسلمين ، وأدرك بنو عبد شمس من قريش انهم ازاء خطر محتمل يهددهم ويهدد أسلوب حياتهم . وشعر زعيمهم ابو سفيان بغيرة مريرة من الهاشميين ، ورأى فى خروج محمد على عقيدتهم تحديا لما يحرصون عليه . ومع ذلك فخشية من اثارة حزازات دموية لم يجسر الكفار على قتله . وبدلا من ذلك حاولوا اغراءه بالمال ليترك دعوته . ولما اخفقوا فى هذا حاولوا تهديد أبى طالب وغيره من أسرته . وأخيرا أخذوا يضايقون محمدا بعدوانهم المتكرر ومحاولة ايذائه فى كل مكان ، فكانوا يفضون اجتماعاته ويعذبون تابعيه . فخرج محمد الى الطائف ، أملا فى دخول أهلها فى الاسلام ولكنه لم يوفق . وفى عام ٦١٥ اضطر الى أن يرسل أتبـــاعه المائة أو نحو ذلك لالتماس الملجأ عند نجاشى الحبشة النصرانى ، وبقى هو مع فئة قليلة من أصحابه فى مكة .

وعندما اخفق الـكفار فى حمل نجـاشى الحبشة على تسليمهم أتباع محمد انقلبوا على الهاشميين فى الحجاز وسلطوا عليهم سلاح المقـاطعة الاجتماعية والاقتصادية لاجبارهم على تسـليم النبى اليهم . وظلوا الهاشميون مدى ثلاث سنوات وهم لا يستطيعون أن يشتروا أو يبيعوا شيئا ، ولـكنهم صــمدوا رغم تعرضهم للجوع والهلاك ، وفى النهاية ألقى ابو سفيان سلاحه . ولم يشذ من أسرة محمد سوى أبى لهب الذى انضم الى الكفار ، وبلغ به الحنق حدا جعله يأمر ابنه بتطليق رقية ابنة محمد ، وقد تزوجت بعد ذلك عثمان بن عفان ، الذى قدر له فيما بعد أن يصبح أحد الخلفاء الأوائل الذين خلفوا النبى .

وفى عام ٦١٧ توفيت السيدة خديجة ولحق بهـا

ابو طالب على الاثر . وفى نفس الوقت دخل فى الاسلام واحد من ابرز القرشيين هو عمر بن الخطاب . ثم اسرى به صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ثم عرج الى السماء ، حيث رفع فى السموات السبع الى العرش ، وفى عروجه التقى بالانبياء السابقين آدم ونوح وهارون وموسى وابراهيم وعيسى ، وبعد ذلك بقليل لقى محمد جماعة من أهل يثرب التى تبعد حوالى ٢٧٠ ميلا الى الشمال من مكة ، فتلا عليهم القرآن ودعاهم الى الاسلام.

وقد تاثروا كثيرا بما قال لهم . ولما رجعوا الى قومهم اقنعوا أهل المدينة بأن محمدا هو الرسول الذى كانوا ينتظرونه ، وبعد فترة أقبلت من المدينة جماعة قوامها سبعون رجلا وامرأتان بايعوا محمدا عند العقبة وهناك دعوه الى الانتقال الى مدينتهم . وقد كان هذا أول نصر ضخم . فقبل الرسول الدعوة على الفور ، وأرسل واحدا من أصحابه وهو مصعب بن عمير مع مئة وخمسون من اتباعه لتمهيد الطريق . بعد عام من ذلك هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة على الرغم من تعقب المشركين له . ولكن العناية الالهية أعمت أبصارهم ، ووصل محمد فى رفقة صاحبه أبى بكر الى يثرب فى سلام فى سبتمبر عام ٦٢٢ .

تلك هى قصة الهجرة ، كما سميت رحلة النبى (صلى الله عليه وسلم) . وتأكيدا بشأنها باعتبارها نقطة التحول فى مولد الاسلام ، اعترف بها بعد ذلك بسبعة عشر عاما ، عندما قرر عمر بن الخطاب وهو خليفة للمسلمين أن يكون عام ٦٢٢ هو عام الهجرة ، والبداية الرسمية للتاريخ الاسلامى .

وقد اقام محمد أول الأمر مع تابعيه الذين ما لبث

ان سماهم الانصار ، فی ضاحية ليثرب ، حيث بنى أول مسجد . ثم انتقل بعد ذلك الى المدينة . وفى البقعة التي توقفت فيها ناقته انشأ مسجده بالقرب من دار ابى ايوب الأنصارى . ولا شيء أوضح لبساطته أو مقته للترف أكثر من هذا البنيان البسيط الذى استخدم طيلة الأعوام الباقية من بعثته مكانا للعبادة والتعليم والراحة . كانت تحوطه جدران من اللبن ، وتسند جذوع النخيل سقفه المتخذ من السعف . وكان المسكن ذاته مزودا بحصير من سعف النخيل كفراش وبأبريق من الفخار . ولم يكن بالمسجد منبر ، فكان النبى يلقى خطبه متكئا على جذع نخلة ، فيتكلم بتؤدة وأناة ، رافعا بصره الى السماء . وكان رسول الله يعيش عيشة البساطة المتناهية ، كذلك الأنصار الذين وطدوا روابط الأخوة بينهم وبين المهاجرين الوافدين اليهم من مكة ، فآووهم فى بيوتهم ، وقاسموهم أموالهم ، وهى عادة بقيت حتى اليوم فى المدينة المقدسة .

وقد طرأ على حياة محمد الآن تغيير اساسى . فلم يعد الامام الهادى والرسول المعلم فحسب بل أصبح الآن رائدا لأهل المدينة لجماعة المسلمين فى يثرب وهم الأوس والخزرج ـ لاقرار العدالة والحكم الصالح . واستجابة لهذه المهام الجديدة ، عقد معاهدة تحالف مع اليهود تعهد اليهود والمسلمون بمقتضاها الا يضايق اى فريق منهم الآخر وان يدافعوا عن المدينة ضد اى عدوان . وقد جعل محمد من بيت المقدس قبلة يولى المسلمون وجوههم شطرها فى الصلاة ، وقضى بأن اراقة الدماء جريمة ضد الله . كما غير اسم يثرب الى مدينة نبى الله . وامر جميع المسلمين الصادقين بالصيام فيما

بين الفجر وغروب الشمس شهرا كل سنة ، وهو شهر رمضـــــان ، والامتناع عن لعب الميسر وشرب الخمر ، وتحطيم كافة الصور المحفورة ، والصلاة خمس مرات كل يوم ، وان يرجعـــوا اذا رابهم امر من الامور الى الله ورسوله والا يستنبئوا القداح وغيرها من الوسائل التى يمارسها العرافون .

بيد ان العهد الذى عقده مع اليهود فى المدينة لم يدم طويلا . فسرعان ما غدر بعض اليهود بالمسلمين وتآمروا عليهم ، اذا بهم احسوا ان ما نادي به الاسلام من المساواة بين البشر يهدد ثروتهم ، وان رأى كثيرون منهم ان من الحكمة أن يتظاهروا بالولاء . وتملكت الغيرة عبد الله بن ابى من تزايد نفوذ محمد بين اهل المدينة . مع انه قد تظاهر بالاسلام نفاقا والتف حوله نفر آخر من المنافقين . وبدأ الفريقان فى التآمر مع الكفار فى مكة . وفى هذا الوقت نزل الوحى على محمد مرتين فى تلاحق سريع . الأولى حين أمره الله بتحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، ثم نزلت بعد ذلك آية القتال فعزم الرسول على قتال المشركين وكل من يعادي الاسلام .

وبدأ محمد صراعه مع أهل مكة الكفار بمهاجمةقوافلهم وفي السنة الثانية للهجــــــرة دعا رسول الله (ص) المسلمين الى اعتراض قافلة مكية محملة بالنفائس وقـــد قدر ما فيها من التجارة بخمسين الف دينار من الذهب وكان يقودها أبو سفيان وعندما بلغ قريش الخبر ، خرج منها ألف رجل للقتال . ولم يكن فى جيش محمد اكثر من ثلاثمـــائة من الرجال الأشـــداء والتقت القوتان المتضادتان فى بدر قرب المدينة . وقد بدأ القتال بمبارزة بين ثلاثة من الكفار ضد ثلاثة آخرين من المسلمين طبقا

لتقاليد الحرب . وكانت هذه البداية التمهيدية فى صالح المسلمين ، وعندما خر المحاربون الثلاثة المكيون صرعى نشبت المعركة بين الجيشين . وبين صيحات التشجيع من نساء العـدو القى الكفار بانفسهم على جيش المسلمين الصغير ، بيد ان المسلمين كانوا يتميزون على خصومهم بايمان دافق ورغبة صادقة فى الاستشهاد وامدهم الله بنصر من عنده فلم يلبثـــوا أن هزموا الكفار على كثرة عددهم وزاد حماسهم عندما سمعوا رسول الله (ص) يقول « لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة »

ومنيت قريش بهزيمة ساحقة . وفى العام التالى ٦٢٥ دارت معركة أحد التى تعادلت فيها الموازين . كانت عدة جيش قريش ثلاثة آلاف رجل . وقد قاموا بمناورة للتغلب على جيش عبد الله بن ابى بالانسحاب من الميدان على رأس ثلاثمائة من المنافقين ولكن ذلك لم يثبط عزيمة المسلمين . وكان الرسول (ص) قد أمر عبد الله بن جبير قائد الرماة بأن يظل مع رجاله على نشز من الارض لحماية المسلمين من فرسان قريش . ولكن الرماة خالفوا أمر الرسول فانقض خالد بن الوليد بفرسانه على المسلمين وأصاب منهم مقتلة كبيرة وعلى اثر ذلك ثبت الرسول (ص) ونادى المسلمين فتجمعوا حوله مرة اخرى وتمكنوا من افسـاد خطة ابى سفيان . وانتهى الامر بانسحاب المشركين دون أن ينـالوا من المسلمين منالا .

وكان الكفار قد تمكنوا فى هذه المعركة من قتل نفر كبير من كبار المسلمين ، فحسب الناس أن المعركة كانت هزيمة للمدينة . وسرعان ما نشطت المؤامرات ضد أمة الاسلام

فى المدينة ولكن المسلمين انتصروا على أعدائهم فى كل لقاء .

والواقع ان أسلوب محمد (ص) فى الاحتفاظ بقوته والمبادرة الى لقاء الأعداء فى كل مناسبة برهنت على الحكمة . فبعد عامين زحف أبو سفيان علي المدينة على رأس عشرة آلاف مقاتل فى محاولة للاجهاز عليه مرة والى الأبد . ولكن النبى عمل بمشورة سلمان الفارسى ، على تقوية دفاعات المدينة بحفر خندق من حولها. واضطر أبو سفيان الى مواجهة حصار طويل . فاشتدت وطأة البرد على المحاصرين ونالت من حماسهم ، واقترن هذا بهبوب عاصفة عاتية ، ونشاط دعاية ذكية من جانب عيون المسلمين . فأدت هذه العوامل جميعا الى تفكك في صفوف العدو ، وهكذا خارت عزائمهم ، وانقلبت قريش عائدة الى ديارها .

وعقب انصراف المشركين وهم الاحزاب عن المدينة تبين محمد ان الوقت قد حان لادخال مكة فى الاسلام ولكنه رأى قبل ذلك أن يقضى على كل قوة لليهود فى المدينة نظرا لنياتهم المنكرة وتآمرهم على أمة الاسلام ، وهكذا تم القضاء على جماعات اليهود الكبرى فى المدينة وأمن المسلمين على أنفسهم من غدر اليهود .

وكانت خطة محمد أول الأمر هى اخذ مكة سلما ، ولكن عندما أرسلت قريش خالدا بن الوليد مع قوة كبيرة لاستباقه ، انحاز محمد الى الدبلوماسية ، واوفد عثمان زوج ابنته للتفاوض مع أبى سفيان . وقد تم الاتفاق على عقد هدنة تسمح للمسلمين بدخول مكة ، لكن ليس قبل العام التالى ، ولمدة ثلاثة ايام فقط ، وبدون أسلحة . وفضلا عن ذلك كان يتعين اذا ابق واحد من

قريش الى صفوف المسلمين .

وبعد أن فتح رسول الله خيبر وكانت معقلا من معاقل اليهود ، واطمأن من كل خطر يأتي من الشمال أرسل بكتبه الى ملوك عصره يدعوهم الى الاسلام ثم تم له فتح مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة .

وعندما دخل مكة عفا عمن كانوا يضطهدونه ، وسارع زعماء قريش الى الدخول فى الاسلام . وقد عرف محمد بحصافته وذكائه كيف يستألف قلوب أولئك الكفار . فدخلوا فى دين الله . وقد تجلت هذه الصفات على أوضحها فيما أصدر من أوامر بصدد الكعبة والحج . فبينما حقق حرفيا النبوءة القديمة بأن واحدا من نسل ابراهيم سوف يطهر يوما بيت الله فى مكة بتحطيم أو ازالة كل أصنام قريش وتحريم كل صور أو تماثيل على هيئة البشر باعتبارها من الوثنية ، فقد أبقى الكعبة قبلة الحج ، والطواف سبع مرات حول الكعبة .

وبعد فتح مكة أخذت جماعات المسلمين تتزايد بالألوف ، وأصبح محمد قادرا على قبول جميع المنضوين تحت لواء الاسلام .

ولكن فى الوقت الذى كان فيه الاسلام يتوطد سلطانه على هذه الصورة ، بدت على النبى أعراض المرض . وفي عام ٦٣٢ حج حجة الوداع التى قال فيها : « الا هل بلغت؟ اللهم فاشهد » . وبعد أيام قلائل من عودته الى المدينة فاضت روحه الطاهرة . وقد انقضت فترة لم يصدق فيها الناس الخبر ، وتوعد عمر أن يضرب بسيفه كل من يقول ان النبى قد مات . ولكن ابا بكر قال لغير المصدقين : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ،

ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » . ثم تلا الآية :
« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » . فأقنعهم كلام ابى بكر ، ثم اختار المسلمون أبا بكر خلفا للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

والسؤال الآن هو : كيف استطاع رجل واحد ان يقود هذه الكثرة الهائلة من تابعيه لكى ينبذوا حياتهم القائمة على عبادة الاصنام والملذات ، مؤثرين عليها حياة صارمة وعرة قوامها الايمان الخالص ؟ من المؤكد ان السبب لم يكن هو عراقة المنبت ، لان كثيرين فى معسكر قريش المضاد كانوا كذلك من ذوى الحسب ، وكانوا أوفر نفوذا وسلطانا فى مكة والحجاز . ولا كان السبب هو هالة النجاح التى حفت به على طريق الظفر والانتصار . انما الجواب واحد : هو الاسلام ، بما قام عليه من اعلان صريح للتوحيد ، ولما انطوت عليه رسالته الروحية من دعوة الى العدل الاجتماعى ، وهى دعوة مست بصفة خاصة قلوب السواد الأعظم فى الحجاز ممن كانوا مستضعفين فى الأرض . وكانت دعوة الاسلام هى الحافز الأكبر وراء الفتوحات العربية الكبرى التى أعقبت وفاة النبى . وهكذا غيرت دعوة محمد بلاد العرب ، وحولت العرب أنفسهم فى الشطر الأكبر من شبه الجزيرة الى أمة متحدة منظمة قادرة على الدفاع عن وطنها الأم وتوسيع حدودها ، كما تجلى فى الأحداث التالية ، الى اقاصى الأرض . ومن خلال القواعد الدينية للعقيدة غرس فى نفوس الطبقات الحاكمة فى الحجاز احساسا جديدا بالمسئولية حيال رعاياها ، وهيأ للجماهير المحرومة قاعدة جديدة للعدالة الاجتماعية .

ولعل اشـد ما يستأثر بلب دارس التاريخ العربى من غير المسلمين انمـا هو ما طبع عليه محمد من صفات الانسانية . كان أكثر الناس فهما للقصور البشرى ، ومن ثم كان أرحم الناس بالناس ، وكان عزوفا عن متـاع الحياة ، وعند وفاته لم يترك سوى درع وقميص وعمامة وثوب مرقع وقربة وحشية من سـعف النخيل . وكان نصيبه من الغنائم وهو الخمس ينفق كله فى سبيل الاسلام .

ولقد كان آية فى الرحمة حتى للعدو المنهزم ، وأروع ما تجلى ذلك فى مكة والطـائف ، حين أقرت قريش بهزيمتها واصبحت اخوة له فى الاسلام .

هذا هو محمد اذن ـ الانسان العادى الذى اختاره الله رسولا وخاتما للنبيين ، والذى احس منذ صباه انه مدعو لتغيير العالم الشرير الفاسد الذى كان يعيش فيه ، والذى أدت رسالة الاسلام التى بعثه الله بها الى توحيد العرب فى عقيدة دينية قوامها الايمان بالله الواحد الاحد ، والذى أظفره الله على الأنانية والخرافة والجهالة ، ومكن لدعوته الخالدة أن تستأثر بقلوب مئات الملايين فى كافة الاقطار والامصار .

الفصل الثالث :

بـــدايات الإمـــبراطورية

بوفاة محمد عاد العرب الى انماط حيـــاتهم القديمة المتباعدة عن التمركز ، والمحبـــــة للاستقلال القبلى ، والمتجافية عن كل سلطة مركزية ، ومن القبائل ما كرة الانظمة الجديدة التى استهدفت تغيير البنيان الاجتماعى وما جاء به الاسلام من خطر للحروب فيما بين المسلمين ، مما عدوه تهـــديدا لرياضتهم الاثيرة المشرفة على مدى الأجيال وهى التناحر القبلى المتوارث . ونتيجة لهـــذا ولغيره من العوامل ، فانه عندما أصبح محمد غير ماثل بينهم لـكى يفرض رسالته بقـــــوة شخصيته ، بدات القبائل فى وسط وشرق البلاد العربية تنضو عنهـــا لواء الاسلام وتطرد الولاة الموكلين بامرهم .

قلنا ان ابا بكر انتخب خليفة لرسول الله) صلى الله عليه وسلم) . وقد اثبت ابو بكر انه اهل للمسئولية التى تولاها وقضى على حركة الردة . واستفاضت شهرة ابى بكر فى المشورة العـادلة المنصفة والراى المجرد عن الهوى الى حد انه ما أن حلت هذه الحجج محلها فى النفس واستوعبتها .

وتوفى أبو بكر بعد عامين وخلفه عمر بن الخطاب . بيد انا ابا بكر على الرغم من كل وداعته ورقته كان بعيد النظر

بحيث أدرك أن أساليب القفاز الناعم لن تكون كافية لرد القبائل الى حظيرة الاسلام أو لدحر الادعياء فى شرق البلاد . فان هؤلاء المتمردين على كل قوة مركزية كانوا يتطلبون اجراءات اشد صرامة للسيطرة عليهم ، وهكذا اتجه أبو بكر الى الجندى الذى طبع أثرا قويا فى نفوس المسلمين ، وهو خالد بن الوليد ، وارسله للتعامل مع هؤلاء الأدعياء .

لقد كان خالد ، كما بدا منه حتى الآن ، قائدا ممتازا ومخططا ضليعا فى التكتيك ، مع شجاعة لا تعرف الخوف وسداد تفكير ورباطة جأش بالغين فى اشد المعارك استعارا . ولم يتردد فى القضاء على مقاوميه بنفس الأسلوب الذى اتبعوه فى قتل المسلمين . ولكنه مع ذلك وضع حدودا واضحة فى معاملة أسرى الكفار ، فالذين دخلوا فى الدين عفا عنهم ، والذين اصروا على الكفر كان نصيبهم الردى .

ولقد أعطى ابو بكر قائده الفذ جيشا قوامه زهرة رجال مكة والمدينة ، واستطاع خالد فى غضون ستة أشهر ان يهزم اثنين من الادعياء فى شرقى بلاد العرب وأن يسحق من معهم من الخلفاء المتمردين . وقد لقى مقاومة عنيفة من قبيلتين ، وعلى الأخص من بنى حنيفة الذين ضيقو الخناق على المسلمين . ولكن خالدا الذى لم تفارقه رباطة جاشه فى اى وقت استنفر رجاله وقسمهم فريقين سواء من رجال القبائل أو من أبناء المدن بقصد اثارة المنافسة والحمية بينهم فى هجومهم المضاد ، ثم تقدم بجيشه

لقد تم الآن للاسلام اخضاع شبه الجزيرة العربية كلها ، وتحويلها الى قاعدة منيعة لنشر الاسلام فقد

اصبح العرب الآن فى موقف يسمح لهم بالزحف الى ميادين جديدة . وبدا ان الشام وفلسطين والعراق هى أقرب وأسهل منحط للأنظار . فقد كان لهذه الاقطار الثلاثة اكبر اهمية استراتيجية واقتصادية ، وكان بوسع من يستحوذ عليها ان يسيطر على المنافذ المؤدية الى آسيا الصغرى والى مصر وفارس . وقد وجد سكان الصحراء الفاتحون فى مدائنها الجميلة ومراعيها الخصبة مغنما ابن مغنم . وفضلا عن ذلك فان الامبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان هذه الاقطار وهما بيزنطة وفارس كانتا قد تحاربتا فى العهد الاخير الى حد انتهى به الموقف الى الجمود بعد ان دامت بينهما الحروب مدى ستة وعشرين عاما فى صراع طويل بين هاتين القوتين المتنافستين . وكانت فارس قد استتبت لها الغلبة أول الامر عندما استولت عام ٦١٤ على بيت المقدس وانتزعتهـــا من امبراطور القسطنطينية المسيحى . ولـــكن بحلول عام ٦٢٨ استطاع البيزنطيون طرد الفـــرس من فلسطين والشام ، وأوقفوهم فيما وراء نهر الفرات فى العراق (او كلديا كما كانت تسمى وقتئذ) .

أن هذه الحروب قد استنفدت طاقة الغالب ، والمغلوب معا . وانتهت بيزنطة الى الافلاس ، واضطرت اقتصادا فى النفقات الى الأخذ بسياسة غير محببة وهي قطـع معونتها الامبراطورية عن قبائل الحدود المجاورة . كما ان حالة الفوضى سادت بلاد الفرس ، حيث ترتب على هزيمة البلاد قتل خسرو بيد أحد أبنائه بالاضافة الى غيره من الذكور من الأسرة المالكة . وقد لقى قاتل الأب مصرعه اغتيالا . وتداول على العرش تسعة آخرون من المطالبين فكان مصيرهم القتل هم ايضا أو الاقصاء عن العرش . وكان آخر المنصبين على العـــرش اميرا فى

الخامسة عشرا من عمره يدعي يزدجرد كتب له أن ينجو من الابادة . والى جانب هذا كله فان الحكام البيزنطيين والفرس كانوا قد أثاروا خصومة الغسانيين واللخميين لأسباب دينية كما أثاروا عاصفة من العداء في الشام والعراق بالغاء الاسر العربية المحلية الحاكمة وفرض حكام مباشرين من قبلهم . وهكذا فان من المحتم ، وقد بدت المغانم جزيلة بالاستيلاء على هذه الاقاليم ، أن يتجه العرب اثر انتصاراتهم الحديثة في شبه الجزيرة العربية الى هذه البلاد ، وأن يعمدوا الي اغتنام هذه المزايا المتاحة لهم في أراضي الامبراطوريتين المنهكتين في الشمال .

ولقد كان العرب منذ بداية صراعهم ضد الفرس والبيزنطيين يحظون بالمزية التي تحظى بها في العصور الحديثة الأمم ذات السيطرة البحرية . وفي هذا الصدد كان البحر هو الصحراء . وفي حين كان العرب يستمتعون بقدرة كاملة للحركة في الصحراء وهي مجالهم الذي نشأوا فيه ، كان الفرس والروم عاجزين عن التحرك في الصحراء عجزا تاما . فمن ناحية كان العرب يستخدمون الجمال ، في حين كان خصومهم يركبون الخيل التي كانت قوة احتمالها في الظروف الصحراوية عند حدها الأدنى . ومن ناحية أخرى فان الغاء الاسر العربية الحاكمة في الشام والعراق كلف الروم والفرس فقدان معظم جنودهم العاملين في الصحراء بعد سحب القبائل تعاونها ومساعداتها احتجاجا على القضاء على البقعة البقية الباقية من الحكم الذاتي العربي .

وكذلك سجل العرب برغم التفوق الفني لجيوش خصومهم انتصارات رائعة على أعظم امبراطوريتين في

تلك العهود . واستطاعت جيوش المسلمين ان تفت من عزائم الروم والفرس وان تلقى في قلوبهم الرعب الى حد جعل مدائنهم وبلدانهم المحصنة تستسلم واحدة تلو الأخرى ، وبهذا اثبتوا للعالم ما يمكن أن يحققه الايمان الخالص والاستبسال الفائق ضد القوى المتفوقة عددا وعدة .

وعلى الرغم من ان الهجوم العربي الرئيسي كان مقررا ان يوجه ضد الشام وفلسطين ، فقد وقع الاختيار على العراق لتكون الهدف الاول لجيوش الخليفة : من ناحية لكونها اقرب الى اراضي المسلمين ومن ناحية اخرى لان حالة الفوضى السائدة في ممتلكات الامبراطور الفارسي جعله يبدو فى نظر العرب خصما اضعف من نظيره الامبراطور البيزنطى . وقد عين خالد قائدا للحملة التي اتجهت الى العراق فى مارس من عام ٦٣٣ . ولدى اقترابه من الأراضي الفارسية وافاه أول بشير يوشك أن يصاحبه من نجاح ، وذلك عندما انضمت اليه تقريبا مما يعرف الآن بالحدود بين العراق والكويت قبيلة بني بكر تحت قيادة زعيمها المحارب الموهوب المثنى بن حارثة . وعلى الرغم من ان بني بكر كان منهم مسيحيون ، الا أنهم كانوا فى حالة تمرد سافر ضد الفرس منذ الغاء الاسرة الحاكمة اللخمية فى العراق ، وهكذا فانهم سارعوا الآن الى اعتناق دين الفاتحين المسلمين .

وقد تضاعفت قوة خالد ثلاثة اضعاف بهذه اللقية التي هبطت عليه ، وعندما تقدمت جيوش المسلمين فى اتجاه وادي الفرات ، دعا هرمز الحاكم الفارسي في دلتا نهر الدجلة والفرات لاعتناق الاسلام أو مواجهة الهزيمة والموت . فما كان من هرمز الذى استخف كثيرا بجيش

المسلمين الا أن تقدم لملاقاته . وطبقا للقاعدة المرعية فقد تحدى خالدا لمنازلته قبل نشوب المعركة العامة ، ولكن خالدا اجهز عليه في يسر ، ودحر جيش الفرس المشدوهين وطاردهم حتى أبواب مدينة طيسفون ذاتها .

ولم يلبث الفرس أن قرروا مقاومة العرب بالعرب . فشكلوا جيشا من الفرس والعرب المسيحيين تقدم لدفع الغزاة . ولكنهم كانوا قاصرين ازاء عبقرية القائد المسلم في القيادة والمناورة . لقد جمعوا جيوشهم وقاموا بالهجوم ، وكادوا ينتصرون عندما تخلت عن خالد لأول مرة رباطة جأشه في المعركة ، فنذر اذا جاء النصر من عند الله أن يحيل دماء جيش العدو الى نهر قرمزى . وعندما تضعضع الفرس في النهاية وانهاروا طوق خالد الأسرى وحز رقاب كتائب بأسرها منهم في قاع قناة جافة برا بنذره .

وعندئذ استأنف خالد تقدمه الى داخل العراق . وعملا بمشورة معاونه ومساعده الأول المثنى بن حارثة بأن « تقاتل العدو في الصحراء حيث ينعقد لك النصر ، والا فان هزمت وجدت الصحراء المعهودة والصديقة عند ظهرك » — فقد راح خالد يناور بقواته كأنها أسطول بحرى يلم بسفنه على مبعدة من الشاطىء على امتداد سواحل العدو ثم يوجه حين يشاء ضربات خاطفة الى الداخل بسرعة وخفة حركة . وكانت مدينة الحيرة هى هدفه التالى ، وبعد حصار قصير الأمد قبل سكانها الذين كانت غالبيتهم من العرب شروط التسليم وهى منحهم حرية العبادة في مقابل أداء الجزية وتعهد المسلمين بحماية المدينة . وكان لهذا الترفق من جانب خالد ما يبرره ، اذ كانت الحيرة مدينة قوية التحصين وذات

قدرة على المقاومة العنيدة ، وكان خالدا بحاجة اليها لتكون قاعدة لجيشه الذي لم يكن فقط في قلب اراضي العدو ، ولكنه كان كذلك بعيدا عن ارض الوطن بنحو الف ميل وليس بينه وبين الحجاز سوى الصحراء المترامية . وقد تجلت مخاطر هذا البعد السحيق بخطوط المواصلات عقب الاستيلاء على الحيرة ، عندما تعرض جيش ثان ارسل لشد أزر خالد الى مضايقات شديدة من بعض القبائل المسيحية لدى دخوله العراق ، ولم يخلصه سوى اولئك الذين قدم هذا الجيش الاضافي لتعزيزهم .

وقد وجد خالد بعد عودته الى الحيرة ، اثر هذا التحول الطارىء ان الفرس قد استجمعوا قواهم وتاهبوا بهجوم جديد بالاشتراك مع حلفائهم العرب المسيحيين في تجمع أكبر من كل ما مضي . فقرر أن يستخدم خطة جديدة ويهاجم عدوه ليلا . فما ان أخذ الفرس على غرة حتى لاذوا بالفرار مذعورين . وتهيأ الآن لخالد أن يغامر بالتقدم من جديد التماسا لفتوحات أخرى ، تاركا جيشه العربى الثانى للاشراف على قاعدته . فتقدم فى وادي الفرات حتى بلغ فيراد التى تبعد ثلاثمائة ميل عن الحيرة قبل ان يصادف أية مقاومة جدية . وكان النهر عند هذه النقطة يمثل الحد الفاصل بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، ولأول مرة اتحدت أهداف هاتين الامبراطوريتين المتنافستين عندما تحدت حاميتا الحدود من الروم والفرس خالدا أن يعبر النهر ويتقدم لمهاجمتها ، فتحداهما خالدا أن يفعلا ، وعندما عبرت القوة المشتركة نهر الفرات ظفر خالد بانتصار جديد ، وعينه الخليفة ، .واليا على العراق ابتهاجا بهذا الانجاز .

وفى خلال ذلك كانت الاستعدادات فى الحجاز جارية بنشاط لفتح فلسطين التى كانت وقتها من الناحية الادارية جزءا من الشام واقصى اقليم فى طرفها الجنوبى. وقد حشدت لهذا الفرض قوة قوامها اربعة وعشرون الفا وضعت تحت القيادة العليا لابى عبيدة الذى كان احد المدافعين الرئيسيين عن خلافة ابو بكر للرسول. وقد قسمت القوة الى اربعة الوية ، أولها بقيادة عمرو بن العاص لغزو فلسطين بطريق العقبة ، والثانى بقيادة يزيد بن ابى سفيان والوالى على نجد والحجاز ، وكان عليه ان يزحف على دمشق ، وكان اللواءين الباقيين أن يكونا بمثابة قوة احتياطية . وكان كل لواء يضم مقاتلين أشداء مدربين تماما من أبناء المدينة ومكة ، وبينهم مائة ممن بقى على قيد الحياة من الثلاثمائة (الصحابين) المشهورين الذين هزموا ابو سفيان فى غزوة بدر . وهكذا لم يكن ثمة أدنى شك فى اقتدارهم أو شجاعتهم . لكن لئلا تطغى فورة حماستهم على حكمتهم ، فقد زودهم الخليفة أبو بكر قبل الزحف بتوجيهات محددة ذكرهم فيها بمسئوليتهم كحملة راية الاسلام فى أراضى الاجانب والكفار ، وشدد عليهم باحترام النساء والأطفال والشيوخ وعدم سلب المحاصيل أو الماشية أو الابل ، والا يلجأوا الى الخداع أو الخيانة أو السرقة ، وأن يرعوا ويقيموا الحكم الصالح بين كافة الشعوب التى يفتحونها .

وكما حدث فى العراق فان غزو المسلمين لفلسطين قد ساعد عليه ما كان هناك من سخط سائد بين القبائل ضد حكامهم . وقد سار كل شىء على ما يرام فى أول الأمر ، واستطاع عمرو باستخدام التكتيك الذى اتبعه خالد بنجاح ضد الفرس أن يفوز فى اشتباكين خاطفين ضد

الروم قرب العقبة وغزة . ولكنه عندما واصل هو ويزيد الزحف شمالا اخذت مقاومة البيزنطيين تشتد . ثم وجدا نفسيهما عاجزين عن التقدم وواجها خطـــر قطع طريق العودة عندما تخلى حاكم دومة العربى ، وهي في مؤخرة جيوش المسلمين وفى منتصف الطـــريق بين فلسطين والعراق ، عن ولائه للاســـلام . وحين بلغ نبأ هـــذه المحنة مسامع الخليفة امر (سيف الله) بالمسارعة الى نجدتهما . فخف خالد على راس تسعة آلاف رجل وشق طريقا طوله الف ميل عبر فيافى ومجـــاهل الصحراء الشامية الكبرى وسحق شيخ دومة المرتد ، وبعد انضمامه الى جيش عمرو عند اجنادين قرب بيت المقدس في شهر يوليو من عام ٦٣٤ ، استطاع أن يدحر جيشا مشتركا من الروم ورجال القبائل المسيحيين ناهز المائة الف رجل .

أصبحت فلسطين كلها الآن مفتوحة امام الغـــزو الاسلامى ، ولكن جيوشهم في الشرق تعرضت لضغط شديد بسبب نقص قوة الجند وخاصة في العراق بعد أن سحب خالد نخبة الجيش لتعزيز عمرو في فلسطين ، وكذلك بسبب حظر أبي بكر لانخراط القبائل المرتدة عن الاسلام اثر وفاة النبى فى صفوف جيش المسلمين . وقـــد انتهز الفرس هذا الموقف وشنوا هجوما مضادا فى اكتوبر عام ٦٣٤ استعانوا فيه بالفيلة لالقـــاء الرعب فى نفوس العرب مما هيأ للقائد الفارسي رستم أن يتغلب على المثنى ابن حارثة نائب القائد وأن يطرد جيشه الى خارج وادى الفرات بعد مجزرة رهيبة . وقد أدى هذا الى رفع الحظر عن رجال القبائل المرتدة ، وبهذه التعزيزات القوية الوافدة من الحجاز تهيأ للمثنى أن ينال انتقامه فى العام التالى عند (البويب) قرب الحيرة ، ومرة اخرى رد الفـــرس واوقفهم عند أبواب طيسفون .

وفى هذه الأثناء كان خالد فى الشام يشدد الضغط زحفا الى دمشق الواقعة فى سهل خصيب والتى كان استيلاء جيوش الاسلام عليها يمثل غنيمة كبرى . وقد استطاع خالد بضم قوات ابى عبيدة الزاحفة من فلسطين الى قواته بلوغ هدفه فى شهر مارس من عام ٦٣٥ . وبعد حصار دام ستة اشهر ، وبمساعدة من بعض رجال الحامية الساخطين ، فتحت دمشق ابوابها ، واستسلم حاكمها البيزنطى .

وعملا بتوجيهات ابى بكر لجنوده عند الزحف ، كانت شروط الاستسلام ، التى قدر أن تصبح نموذجا يحتذى في فتوحات الاسلام التالية ، بالغة الرفق بالنسبة للسكان . فقد امنهم خالد على حياتهم وممتلكاتهم وكنائسهم ، ووعد بالابقاء على سور مدينتهم ، وبعدم ايواء احد بين المسلمين فى بيوتهم ، وطالما ادوا الجزية فلن ينالهم الا الخير .

كان ذلك فى الحق جهدا بارعا للمسالمة ، بالتأكيد على المزايا والاعفاءات التي سيهيئها الفتح الاسلامى فى مقابل أداء الجزية ، وبنفي اية دلالة على ان غير المسلمين وغير العرب سيعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية . والواقع ان هذا الاعلان لم يحقق فقط الغاية منه وهى تسليم دمشق للفاتحين المسلمين ، بل ان ما قام عليه من موادعة وتسامح كان له كذلك أعمق الأثر فى نفوس القبائل المسيحية فى الشام ، الى حد ان جيوش العرب وجدت أصدقاء جددا لها فى كافة أرجاء الاقليم . وكان مقدرا ان تؤتى هذه المصادقة ثمارها الجزيلة باسرع مما كان خالد يتوقع . ذلك انه بعد ان واصل الزحف واستولى على حمص وبعلبك ، تدفق جيش بيزنطى جديد

يتراوح بين مائة ومائتي الف قادما من الاناضول واكتسح قوات الخليفـــة وردها الى نهر اليرموك فى فلسطين .
ورغبة فى بيان صدق نية المسلمين أعاد خالد وابو عبيدة الجزية لأهل البلدان التي كانوا يجلون عنها باعتبارها ان قواتهم لن تستطيع الوفاء بما التزمت به من حمـــاية السكان . وهكذا كان المسلمون فى ارتداهم يجدون رجال القبائل فى كل مكان على استعداد لمساعدتهم بالمؤن والضن بكل مساعدة للروم .

وفى أغسطس عام ٦٣٦ توقف خالد عند ملتقى نهر اليرموك بالأردن . وقد أبرزت المعركة التي تلت بعد ذلك عبقرية خالد في التكتيك . فقد استغل الى أقصى حـد هبوب عاصفة ترابية عنيفة والقى بقواته الأقل عددا من قوات العدو على هذا العدو الذى أعمته العاصفة واشاعت فى صفوفهم الفزع والفوضي والرعب . وفى هذه المعركة قاتل المسلمون كما لم يقاتلوا من قبل . وقد ظلت دائرة الرحى ثلاثة أيام الى أن أبيدت الجيوش المعادية من بكرة ابيها وقتل قائدها . ولم يعد لدى الامبراطور هرقل الذى جاء الى انطاكية للاشراف على المعركة التى كان يعلم انها ســتقرر مصـــير الشـــام الا ان ينسحب عائدا الى القسطنطينية .

هكذا خرج الاسلام من معقله الصحراوى . لقد فتح العرب العراق وفلسطين والشام . وغدت دمشق وبيروت وحمص وانطاكية وحلب وصيدا تحـــكم باسم الخليفة فى مكة .

وقد استدعى خالد الى المدينة بعد أن أعاد فتح دمشق وكان ذلك فى عهد عمر الذى تولى الخلافة عام ٦٣٤ بعـد وفاة ابى بكر . وعين ابو عبيد واليا على الشام ، وعهد

الى عمرو بن العاص بالاستيلاء على بيت المقدس التى لم يفتحها العرب بعد دون كل فلسطين ، ولكنها الآن كانت ثمرة ناضجة ، ولم تلبث أن سقطت دون قتال فى يناير من عام ٦٣٧ . وقد كانت شروط الاستسلام مطابقة لما كان فى دمشق . ومرة اخـــرى عوهد المسيحيون على الا يتعرضوا لاية مضايقة ، وأن تصان كنائسهم وصلبانهم . واستجابة لرجاء بطريق الروم المنهزم سوفرونيوس ، جاء عمر بشخصه لتوقيع المســاهدة ، وعلم الحشد المزدان بالملابس الفاخرة من القادة الاساقفة الذين كانوا فى انتظار وصوله عند أبواب المدينة درســا فى التواضع ، بقبول استسلامهم وهو فى ثوب مرقع وعلى ظهر حمار .

واذا كان خالد قد اعفى بعد ذلك من قيادة جيوش المسلمين ، فلعل عمر اراد بهذا أن يجنب الناس فى مكة وفى البلاد التى فتحها الاسلام حديثا مغبة الظن بأن الفضل فى نجاح الجيوش الاســلامية يرجع الى خالد لا الى مشيئة الله . ولقد كان عمر لا يعرف الهوادة فى توطيد دعائم الدين . ولقد كان عمر هو الذى قال : « انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده . واما أنا فورب الكعبة لاحملهم على الطريق » . وهذا ما نهجه .

ذلك ان عمرا هو الذى وثق القواعد التى اراد بها النبى أن تحكم المسلمين . فقد لاحظ بعد وفاة النبى أن الحفاظ كادوا يندثرون ، فامر زيدا كاتب النبى بجمــع القرآن ونسخه فى المصحف مرتبا حسبما كان الرسول يتلوه على لسان جبريل منزلا من عند الله . واصبح القرآن والحديث مصدر شريعته الاسلامية التى تنظم حياة المسلمين فى العبادات والمعاملات .

وبعد وفاة عمر وجدت نسخ اخرى متداولة ، فعمل خليفته عثمان على ايجاد نص واحد رسمي. وفى عام ٦٥١ عين زيد للقيام بواجب المراجعة ، وجمع النص الرسمي للقرآن نقلا من الأصل الذي وجد عند حفصة بنت عمر احدي زوجات النبي ، فعاش القرآن الكريم عبر القرون كتاب الله الخالد وتجسيدا لكل علوم الاسلام وحكمته ولكل ما فى اللغة العربية من بلاغة وبيان .

وكانت احدي النتائج المباشرة لهذا الجهد هي وضع الاساس لنظام تعليمي . وكان أوائل المسلمين فى العصر الاسلامي هم قراء القرآن الذين بعث بهم عمر رسلا فى كافة أرجاء بلاد العرب ، وكانت أولى المدارس هى تلك التي أقامها أولئك المعلمون فى المساجد ، حيث كان يدعى الناس فى كل يوم جمعة شبانا وشيبا بأمر الخليفة للاستماع الى ترتيل القرآن . وقد ظل نظام التعليم العام مقصورا على هذه (المدارس الدينية) طوال المائة عام التالية أو يزيد ، ذلك ان الطبقات الحاكمة فى تلك الفترة، مع بعض الاستثناء ، لم تكن تتميز برعايتها للتعليم ، وكانت تعد الصحراء ، التى كانوا يرسلون إبناءهم اليها للتعليم ، هي أفضل المعاهد . ففيها كان الشاب يتلقى كل ما يعد صالحا له ــ اللغة العربية الفصحى للقبائل ، الى جانب طائفة من مقومات الرجولة مثل الفروسية والسباحة والرماية بالسهام . وفى عهد الخليفة عبد الملك ، جيء بمربين خصوصيين من البلاد الاجنبية لتعليم قواعد اللغة العربية . وبدأ عدد قليل من الأطباء فى القيام ببحوث فى الكيمياء والطب بالاعتماد على المصادر اليونانية والفارسية .

وهكذا ظل القرآن والمسجد هما الأساس للتعلم عند

العرب ، الى أن جاء الخلفـــاء العباسيون فبداوا عصر التعليم الكبير فى القرن التاسع بما أقاموه من اكاديميات التعليم العالى والعلوم ، بعد أن ظل التعليم مقصورا على مبادىء القراءة والكتابة وقواعد اللغة والشعر والحساب البسيط .

الفصل الرابع :

فتح فارس ومصر

تري ما هي القوى التى كانت وراء الفتوحات العربية والتوسع خارج شبه الجزيرة ؟ هل كانت الحوافز الدينية وحدها هي التى دفعت الى هذه الوثبة الكبرى ، ام كانت لاسباب اخري اقتصادية واجتماعية كما ذهب الى هذا بعض المستشرقين ؟ فى هذا الصدد يقول الجنرال جلوب فى كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) ان « الضغط السكاني والضروريات الاقتصادية ما كان يمكن وحدها ان تولد مثل هذا الانفجار البركانى . كان الامر يتطلب بواعث روحانية ومثالية عميقة متقدة لشبوب مثل هذه الفورة المتفجرة » . وعلى هذا كان اجماع المؤرخين العرب ، الذين فسروا هذه الاحداث الجسام بأنها تسلسل طبيعي بعثت عليه الحماسة الدينية ودوافعها الخالصة .

والواقع انه لم يكد يتم فتح الشام وفلسطين حتى أصدر عمر اوامره للقيام بهجوم جديد ضد الفرس فى العراق . ففي عام ٦٣٧ ، وبعد أن توفى المثنى متاثرا بالجراح التى أصيب بها فى معركة البويب ، أرسل عمر واحدا من (صحابة) الرسول في موقعة بدر ــ وهو سعد بن أبي وقاص ــ على راس جيش يربو على ثلاثين الف رجل ، معززا بحملات من القبائل المحليه ، للهجوم والاستيلاء على

العاصمة الفارسية طيسفون .

وكان الامبراطور الفارسي يزدجرد شابا حاد الطبع اغضبه وصول وفد من العرب فى ملابس خشنة من قبل سعد يدعوه الى اعتناق الاسلام ، فتجاهل نصح رستم وتحذيره وامر جيشه بمهاجمة المسلمين القادمين . وكما ادرك قواده الاوفر حكمة انه ما كان يمكن أن يوقع نفسه بأكثر من هذا في أيدي العرب ، اذ بدلا من المجازفة بقواته في المناطق المكشوفة بالصحراء ، كان ينبغي له ادخارها خلف الاستحكامات الحصينة لعاصمته واستدراج العرب الى خارج معقلهم الطبيعي في الصحراء . بيد ان طبع الامبراطور الشاب الحاد تغلب عليه ، وفى شهر مارس من عام ٦٣٧ خرج الجيش الفارسي لاعتراض زحف المسلمين عند القادسية على بعد اميال قليلة غرب الحيرة فى وادى الفرات . ومن مجلسه فوق عرش مذهب مظلل على ظهر احد الفيلة باشر رستم ادارة العمليات عندما اخذ جيشه الذى قيل انه كان يربو على المائة الف يهبط على الغزاة . وقد احتدمت المعركة مدى اربعة أيام ، وفى اول الامر كانت الكثرة العددية للفرس شديدة الوطأة على العرب . ولكن عندما بدأ رماة جيش سعد فى تصويب سهامهم الى اعين الفيلة ، اخذت الحيوانات التى اعماها الرمى تتخبط على غير هدى وتدوس على صفوف رجالها . ولقد لقى رستم مصرعه بتشديد العرب لرمى السهام انتهازا لهذه المزية المفاجئة ، فتحطمت صفوف الفرس ولاذوا بالفرار ، تاركين غنائم جزيلة على ارض المعركة للمنتصرين .

وهكذا كانت هزيمة الجيش الفارسي الشامخ الذى رد الجيوش البيزنطية منذ سنوات قلائل الى ابواب القسطنطينية على أيدى رجال القبائل العرب . وقد

اصبحت العراق باكملها الآن تحت اقدام الجيـــــوش الاسلامية ، وباحتلال الشام فى الشمال حتى جبـــال طوروس ، دق الآن اسفين بين الامبراطوريتين الكبيرتين . وقد فر يزدجرد من طيسفون ، وبانضمام القبـــائل المسيحية في الشمال الى صفوف المســلمين بكاملهم ، استولى سعد على العاصمة الفارسية .

اخذت الامبراطورية الفارسية الآن تترنح ، ومع ان سعدا أراد مواصلة الزحف الى خراسان عبر جبال زاجروس ، فقد طالبه عمر بالتوقف خشية أن يتجاوز العرب حدود طاقتهم ويتعرضوا لخسران كل ما ظفروا به حتى الآن . وفى عام ٦٣٨ أقيمت قواعد حربية جديدة فى البصرة والكوفة في واذى الفرات ، واصبحت الكوفة بأمر الخليفة عاصمة العراق محل طيسفون .

على انه بمضي ثلاث سنوات أقتنع عمر بأنه ان لم يضرب أولا فقــد يعــود يزدجرد بجيش اكبر لاخراج العرب . وهكذا انطلقت جيوش المسلمين مرة أخرى فتم الاستيلاء على الموصل عام ٦٤١ ، ثم تحولت الجيوش العربية شرقا عبر جبال زاجروس ، وعند نهاوند على حدود اذربيجان هزموا جيشا جرارا للفرس فقد ثلاثين الفا فى المعركة ثم ثلاثين ألفا أخرى عندما طارد العرب فلولهم شرقا . وبحلول عام ٦٤٤ اجتاح الجيش الاسلامى المظفر ثلاثة ارباع اراضى أيران الحديثة ووطد حكمه فى ولايات (فارس) فى الجنوب العربى ، وفى خراسان الشمال الشرقى ، وفى اذربيجان فى الشمال الفربى . وقد اعقبت هذه الفتوح الجديدة دخول الناس في دين الله افواجا ، فقد نبذ الفرس عباد النار معتقدات زرادشت وتقاطروا لاعتناق الدين الاسلامى .

وفي خلال ذلك كانت الجيوش الاسلامي توجه اهتمامها الى الغرب . وكانت مصر تجتذب العرب كما اجتذبتهم الشام والعراق لاسباب اقتصادية واستراتيجية ، اذ كانت مصر احدي الممتلكات الثمينة للامبراطورية البيزنطية ، حتى كان الروم يعدونها مخزن الغلال الرئيسي لهم . ومن الناحية الاستراتيجية كان من الامور الحيوية انتزاع مصر من ايدي البيزنطيين ، بسبب قربها للحجاز بصورة لا تبعث على الاطمئنان ، ولان وجود ميناء الاسكندرية كاحدي القواعد الرئيسية للروم جعل في مقدور اسطولهم البحري تهديد فتوح الاسلام الجديدة في فلسطين والشام . وبعكس ذلك لو تملك العرب دلتا النيل لكانت لهم قاعدة تمكنهم من مزيد من التوسع داخل الاراضي التي يحتلها البيزنطيون على امتداد ساحل افريقية الشمالي .

وهكذا كانت الخطوة التالية بعد الشام وفلسطين هي في اتجاه مصر . وفي عام ٦٣٩ اوفد عمر بن العاص على رأس جيش صغير قواته اربعة آلاف من الفرسان ـ ضوعف بعد ذلك الى عشرة آلاف ـ لادخال مصر تحت راية الدين الاسلامي .

ولقد قوبل عمرو ، مثل خالد في العراق ، باستقبال حار من القبائل المحلية حالما وصل الى الاراضي المصرية ، وتلقاه الاقباط بالتعاطف لما كانوا يلقون من اشد القمع على يد البطريق البيزنطي بسبب رفضهم التحول الى مذهب الكنيسة الارذوكسية الرومية ، ولما اشتهر به المسلمون من تسامح حيال الديانات الاخرى .

وكان الهدف الاول لعمرو هو حصن بابليون البيزنطي الكبير ، الذي كان قائما في موقع القاهرة الحديثة . وبعد

ان تقدم على امتداد الساحل من غزة واتجه الى الداخل بحذاء دلتا النيل ، انضمت اليه تعزيزات من (المدينة) ، وفيما بين ابريل ويوليو عام ٦٤٠ خاض ضد البيزنطيين عدة اشتباكات ناجحة باستدراجهم الى داخل الصحراء . ولكن احتماء البيزنطيين بحصنهم المنيع بعد كل مرة أطال الحرب وحتى آخر العام . ولكن ما أن نمى الى علم الحامية الرومية ان امبراطورهم هرقل قد توفى فى القسطنطينية حتى تخلى المدافعون عن القتال . وقد سمح لهم فى مقابل تسليم حصن بابليون بكل ما فيه من مؤن بالانسحاب عبر النيل تحت راية الهدنة . وبعد اربعة اشهر كان عمرو يزحف خلال الدلتا ويطرق ابواب الاسكندرية ، وبعد أربعة أخر ، فى نوفمبر عام ٦٤١ ، التمس المقوقس الصلح ، بعد ان أدرك نائب الملك هذا ان سياسة القمع والمد الاسلامى الغلاب قد جعلتا البلاد كلها ضده .

وعندئذ استسلمت الاسكندرية بالشروط المعتادة ــ توفير الحماية للمسيحيين واليهود فى مقابل الجزية والضرائب ، وسمح للجيش البيزنطى بالانسحاب بحرا الى القسطنطينية . وفى ذلك العهد كانت عاصمة مصر وهي الاسكندرية لا تسبقها سوى القسطنطينية جمالا وثراء . لقد استحدث تفوقها وبهاءها من امبراطوريتي روما وبيزنطة ، ومن قبلهما من الفاتحين الاغريق الذين اسسوها . كانت سماؤها الصافية تظلل منارتها الشهيرة فاروس التى كانت تعكس أشعة الشمس نهارا ونارها الهادية ليلا ، ومسلتى الجرانيت الضخمتين اللتين تقومان الآن فى سنترال بارك بمدينة نيويورك وعلى رصيف نهر التيمز فى لندن ، وكذلك المعبد الذى شيدته كليوباترا تكريما ليوليوس قيصر . ولا عجب اذا كان عمرو قد كتب الى الخليفة يبلغه بانه استولى على مدينة تجل عن

الوصف ، بما فيها من اربعة آلاف من الفيللات واربعة آلاف حمام ، واربعين ألفا من اليهود سوف يؤدون الجزية .

وقد تم الآن احتلال مصر كلها حتى حدود النوبة ، واخضاع ليبيا ، بما فيها مدينة طرابلس البيزنطية ، لنظام الجزية . وقد أثبت عمرو قدرته فى التنظيم الادارى عندما شرع في دعم انتصاراته ، فبنى عاصمة جديدة سماها الفسطاط (هى الآن مصر القديمة) قرب بابليون حيث كانت القناة الفرعونية القديمة تصل النيل بالبحر الأحمر . وقد عين عمرو حاكما عسكريا ، وعهد الاشراف على الضرائب الي عبد الله ابن ابى سرج وهو أخ لعثمان فى الرضاعة . ولكن بعد ثلاث سنوات فقد عمرو منصبه بنهاية عهد عمر بن الخطاب الذى دام عشر سنوات على يد عبد فارسي طعنه بخنجر وهو يدخل مسجد (المدينة) ، توهما منه بأنه تلقى من الخليفة حكما غير عادل بصدد نزاع مالي رفع اليه .

وقد خلفه عثمان صهر الرسول (ص) الذى انتخبه أهل الشورى الذين اختارهم عمر وهو على فراش الموت . وكان من أوائل أعماله استدعاء عمرو من مصر وتعيين أخيه فى الرضاعة عبد الله واليا مكانه . وفي عام ٦٤٥ استعاد الروم الاسكندرية . فسارع عثمان باعادة عمرو لاستعادة المدينة ، وبعد ان تم ذلك طلب منه البقاء فى قيادة الجيش مع بقاء عبد الله عاملا على بيت المال ، وبعد ان رفض عمرو هذا الوضع ثبت عبد الله واليا على مصر .

وعلى هذا النهج سارت السياسة الجديدة فى ايثار الاقارب بالوظائف ، خصوصا من كانوا من بنى أمية ، حتى لقد ظفروا بكافة الوظائف الكبرى فى الحكومة

والجيش ، مما كان مثارا للنقد والسخط والمرارة .

وبعد عشر سنوات تفاقم الحال فلجأ عثمان الى على يطلب عنده المشورة وكان محتجبا طوال هذه المدة . فكان من رأى على ان على الخليفة أن يعمل على (اصلاح البيت) لكى يستل سلاح الناقدين . فدعا الخليفة الى مؤتمر من ولاته فى الأقاليم ، ولكن عثمان لم يفعل وكان قد جاوز الثمانين من عمره وبدأت نذر الثورة عليه .

ولم تمض اشهر قلائل حتى ثار اهل الكوفة ، ولكن ثورتهم اخمدت ، بيد أن روح الثورة سرعان ما انتقلت الى مصر ، حيث قام المتمردون بزعامة محمد بن أبى بكر يخلع الوالى عبد الله بن أبى سرح . وفى عام ٦٥٦ زحف جند مصر الى (المدينة) ولقيهم على ولامهم على الخروج على عثمان فلم يسمعوا له فلزم بيته ، وترك لولديه الحسن والحسين حراسة دار الخليفة .

كانت (المدينة) بغير حامية تسهر على حراستها فى هذه الفترة ، وكان معظم بنى أمية قد فروا من الحجاز عند اقتراب الثائرين . وهكذا تمكن المتمردون من محاصرة دار الخليفة ، وكان هدفهم حمله على التنازل وبهذا يتفادون سفك الدماء . ولم تؤد المفاوضات الى نتيجة ، فتسوروا البيت من السقف ، وطعن محمد واثنان من شركائه الخليفة حتى قضوا عليه . وبعد ثلاثة أيام دفن عثمان وهو بملابسه المخضبة بالدماء ، وكان ذلك ايذانا بفتنة كبرى .

الفصل الخامس :

الحـــــرب الأهلـــية

بينما كانت الثورة ضد عثمـــان تتجمع في العراق ومصر ، وكان العـــرب قد قضوا على دولة الفرس واستولوا علي الروم وعلي الشام ومصر ثم زحفوا الى تونس وهزموا جيشا كبيرا للروم جنوب قرطاجة، عاصمة شمال افريقية البيزنطية . وفى الشمال استولوا على قبرص وغزوا آسيا الصغرى ودمروا الأسطول البيزنطى على مقربة من شـــاطىء الأناضول . ثم زحفوا الى ارمينيا وتوغلوا حتى البحر الأسود وانثنوا منه غربا حتى مسافة أميال قليلة من القسطنطينية . وفى الشرق اكتسحوا الجيوش الفـــارسية وأزاحوها واندفعوا من خراسان للسيطرة على أفغانستان وتركستان . وعندما قتل كسرى يزدجرد عام ٦٥١ كان ذلك ايذانا بنهـــاية الدولة الفارسية التي ظلت مزدهرة مدى أثنى عشر قرنا .

ولكن قوة الدفع في حركة التوسع الاسلامي ما لبثت أن توقفت بمقتل عثمان . واصبحت العداوة التقليدية بين الأمويين والهاشميين ثأرا دمويا ، وتحـول العـرب من قتال أعدائهم الى الاقتتال فيما بينهم ، وفى أثناء الصراع قتل طلحة والزبير . واصبح على بن ابى طالب هو المرشح الرئيسي للخلافة نودى به خليفة ، وقد طالب الأمويون بثأرهم من على . وتزعمهم فى ذلك معاوية بن

أبي سفيان ، الذى استطاع من خلال وجــوده واليا وقائدا عاما فى الشام أكثر من خمسة عشرة سنة أن يكسب قلوب أهل الشام بحكمة المستنير . وكان أول عمل قام به معاوية من أعمال التحدى للخليفة الجديد هو تعليق قميص عثمان المخضب بالدم فى مسجد دمشق لاثارة روح الثأر . وعندما كتب اليه على يطلب منه الولاء رد عليه بورقة بيضاء .

ولم يستطع على ان يقطع براى فى كيف يعالج هذا التحدي . ولكن التردد فى مثل هذا الموقف كان خطرا فان قبائل البدو غدت اقرب الي التمرد بعد ان وجدت امامها مرة اخرى فرصة للعودة الي الفوضى . وبقى العراق وحده الذى بدأت فيه الثورة ضد عثمان على ولائه لنظام الحكم الجديد . ومع ذلك فان رد الفعل الوحيد الذي بدر من جانب علي كان عزل ولاة عثمان من البصرة واليمن ومصر .

واخيرا تحرك الخليفة للعمل وســـــارع الي الكوفة لحشد أنصاره . وقد انضمت اليه قبيلة بنى بكر ، وبعد وعد أهل الكوفة بأن مدينتهم ستصبح عاصـــمة الخلافة بدلا من (المدينة) ظفر بتأييدهم وجمعوا له جيشا قوامه عشرة آلاف رجل لسحق الثورة . ولكن عليا كره مهاجمة عائشة أم المؤمنين التى أنكرت خلافة على ، ولكن القتال وقع بين الجانبين قبل أن يحاول كسبها بالمفاوضات . وقد انتصر على وسميت المعركة فيما بعد وقعة الجمل . وقد قتل الزبير وهو يحاول الهرب ، وأعيدت عائشة الي (المدينة) معززة مكرمة حيث توفيت بعد ذلك بأربعة عشر عاما وهى فى السادسة والستين .

وهنا بايع جند العراق عليا خليفة غير منازع اما فى

الشام فكان عليه أن يحسب حساب معاوية الذي رفع راية قميص عثمان الملطخ بالدم لحشد جيش متزايد من انصار الأمويين . ولم تجد كل محاولات علي لكسب ولاء المدافع الجديد عن البيت الأموى أذنا صاغية من معاوية ، وفي النهاية صمم علي أن يزحف الي الشام ، وفي ابريل من عام ٦٥٧ التقى وهو على راس جيش من خمسين ألفا بجيش معاوية من أهل الشام عند صفين على نهر الفرات . وقد أشرف علي على الانتصار عندما لجأ عمرو بن العاص القائد الثاني في جيش معاوية الي خدعة هي رفع المصاحف فوق رماح الجند . وفي الحال توقف رجال علي عن القتال بعد أن فسروا هذه البادرة على الوجه الذي اريد لها باعتبارها نداء الي تحكيم القرآن . وقد اضطر علي الى الموافقة على حل الخلاف بالاحتكام الى كتاب الله .

وعندما اجتمع الحكمان بعد ستة اشهر كان مندوب علي شيخا ساذجا غير محنك في السياسة بالقياس الى عمرو مندوب معاوية ، فقد وافق مع عمرو على خلع كل من موكليهما من الخــــلافة ، وهي حيلة جعلت عليا هو الخاسر الحقيقي ، اذ ان معاوية لم يكن مطالبا بالخلافة . وقد قامت الآن بين الاثنين المتنافسين هدنة مسلحة ، كان فيها معاوية مسيطرا على الشام ، وعلي معترفا به العراق وفارس ومصر والحجاز .

ولم يلبث معاوية ان شرع في فصم عرى ولاء اقاليم اخرى للكوفة ، فبدأ بمصر التي ارسل اليها عمرو بن العاص مرة اخرى مع قوة من الأمويين حيث نصب عمرو نفسه واليا عليها من قبل معاوية . وعندما اطمأن معاوية من ناحية مصر زحف على شمالي العراق ، في حين كانت

جيوش الخليفة تقف موقفا سلبيا ، وكانت الخطوة التالية هى الزحف الى بقية العراق ذاته ، واستطاع معاوية اثارة أهل البصرة على الخليفة ، كما ارسل قوة من ثلاثة آلاف رجل الى المدينة ومكة ، حيث اعتلى قائدها المنبر وتوعد بالموت كل من لا يقسم بالولاء لمعاوية .

وبحلول عام ٦٦٠ ادت هذه الغارات الأموية الى انحسار رقعة سلطان على حتى اقتصرت على فارس وركن صغير من العراق كانت الكوفة مركزه ، ونادى معاوية بنفسه خليفة فى بيت المقدس . وأخذ أنصار على ينفضون عنه بسرعة أو ينضمون الى الأمويين او يلوذون بالاختفاء . وعند هذه المرحلة ظهرت فى العراق طائفة جديدة من المنشقين سميت (بالخوارج) ، وقد رفض هؤلاء الاعتراف بكل من على أو معاوية خليفة ، وأقسموا أن يغتالوا فى وقت واحد الخليفة فى الكوفة ، ومعاوية فى دمشق ، وعمرو فى مصر . وقد تحرك على لاستئصال هذا التهديد فى المهد ، فهاجم معسكر الخوارج فى نهروان . لكن على الرغم من أنهم منوا بهزيمة ساحقة . فقد رفض هؤلاء الخوارج التسليم ، وفى ينساير عام ٦٦١ هاجم واحد منهم الخليفة بسيف مسموم قرب مسجد الكوفة . وحاول آخر قتل معاوية فى دمشق ، وفى مصر أخطأ القاتل الثالث عمرو وقتل شخصا آخر . وهكذا بقى معاوية وحده فى الميدان .

***

فى الوقت الذى استشهد على على هذه الصورة ، كان معاوية حاكما لا ينازعه أحد فى الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وبدأ يطبق على العراق ، وكانت

الكوفة وخراسان هما اللتان لم تعترفا بحكمه . ولكن ذلك لم يدم طويلا .

لقد اختار اهل الكوفة الحسن بن على خليفة اثر وفاة ابيه ، تكريما لذكراه،وآثر الحسن أن يجعل مقره فى العاصمة الفارسية القديمة طيسفون . ثم أرسل جيشا من الكوفة ضد معاوية ، ولكن عندما ترامت الشائعات الى طيسفون بهزيمة هذا الجيش ، بادر الحسن بالتنازل لصالح معاوية ، وانسحب الى (المدينة) حيث أقام بها ثم مات بعد قليل .

لقد نقلت الآن عاصمة الخلافة رسميا الى دمشق ، حيث ظلت بها طيلة تسع وثمانين سنة . كما ان معاوية اضطلع باصلاحات ادارية معينة استهدف منها تنظيم حكومة الدولة وتجديثها . كانت دولة الاسلام حتى وقتئذ مقسمة الى وحدات ادارية أو ولايات مطابقة بصفة عامة لتقسيمات الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . وكانت كل من بلاد الشام وفلسطين والعراق ولاية قائمة بذاتها وكذلك كانت العراق ، وخراسان ، البحرين وعمان ، وشرق فارس ، والحجاز ، وارمينيا ، ومصر ، وشمال افريقيا ولايات لها عمالها ، واخيرا اليمن وجنوب البلا العربية ، فجعل من هذه التقسيمات الثقيلة العبء خمس ولايات : ولاية العراق ، وتشمل الشام وشرق البلاد العربية وقد وضعت تحت اشراف وال واحد وجعلت الكوفة عاصمة لها . وبالمثل أدمجت الحجاز واليمن وجنوب البلاد العربية فى ولاية واحدة . ووسعت ولاية ارمينيا لكى تشمل اقليم الجزيرة فيما بين نهرى الدجلة والفرات ، وضمت كل من مصر وشمال افريقية وغرب وشرق فارس فى ولاية واحدة .

وكان معاوية ايضا هو أول خليفة عمل على تفويض السلطة . فلم تعد وظائف الحكومة الثلاث وهي الادارة السياسية وجبـــاية الضرائب والامامة مركزة في يد الخليفة ، ولكن عهد بكل منها الى عامل معين . وأصبح الولاة أحرارا في تعيين نواب لهم في نطاق ولاياتهم دون الرجوع الى دمشق . وبدلا من تصريف شـــئون القضاء بمعرفة الخليفة شخصيا كما كان يفعل أوائل الخلفـاء عين قضاة مستقلين في سائر أرجاء الدولة . كمـــا أنشأ ديوانا للحكومة ، ونظـاما للبريد وحفظ الوثائق الحكومية لمواجهة حجم المراســـلات المتزايدة وضمانا للمحافظة على الوثائق الرسمية .

وفي نفس الوقت شرع معاوية في تقليص آخر معقل لقوة العلويين في الشرق . فدعا والى على في فارس وهو زياد بن أبيه الى دمشق حيث أغدق عليه الكثير ، وبعد ذلك عرض ولاية الامبراطورية الشرقية بكاملها عليه . وقد انضم زياد وهو ابن غير شرعي لأبي سفيان الى معاوية ، ولا سيما حين عرض عليه معاوية الاعتراف به اخا شرعيا له . وعندما رجع الى دائرة ولايته المتضخمة ، شكل زياد أول قـوة للشرطة في الامبراطورية العـــربية واستخدمها في تعقب الشيعة المناصرين للحسين بن على . وقد أدت سياسة القمع التي انتهجها زياد الى بسط سلطان معاوية على الأقاليم الشرقية كلها .

وبعد أن أحكم معاوية قبضته على القاعدة الداخلية وجه الجيوش العربية الى الهجوم في جميع الاتجاهات مرة أخرى . فعلى جبهة الروم استغل السيطرة البحرية التي توطدت للعرب منذ الاستيلاء على القـــواعد البحرية البيزنطية في الاســـكندرية وقبرص وتدمير الاسطول

البيزنطى ، لقيام العــــرب بالإغارة على صقلية ورودس والابحار حتى الدردنيل لمهاجمة القسطنطينية ذاتهــا ، وان لم يتيسر لهم التأثير فى هذه القلعة المنيعة . وفى الشرق عبر العرب نهر جيحون الى ازبكستان واغاروا على بخارى ، وادخلوا مدينتى بلخ وهراة القــــديمتين فى افغانستان تحت سيطرة الاسلام ودعموا حكم المسلمين حتى ضفاف نهر السند . وفى افريقية عهد الى عقبة بن نافع ابن اخ عمرو . بتعزيز حدود الامبراطورية غربا الى أبعد حد ممكن . ذلك انه حتى ذلك الحين ، وبسبب حاجة العرب الى قاعدة لهم أقرب من الفسطاط فى مصر — وهو ما يعني وجود خط للمواصلات طوله ألف وخمسمائة ميل تحت رحمة العــــدو وهجماته باستمرار — كانت الجيوش العربية التى تصــل الى اية مسافة على امتداد الشاطىء الشمالى لافريقية تضطر الى العودة . واذن فقد قام عقبة فى عام ٦٧٠ بانشاء العاصمة العسكرية الحصينة وهى القيروان فى تونس ، فى منتصف المسافة بين مصر وبين أقصى نقطة لشمال افريقية البيزنطى فى مراكش ، ومن القيروان أقام سلسلة من الاستحكامات شرقا وغربا لمنع هجمات الجيوش البيزنطية من قرطاجة وغارات قبائل البربر من داخل الأراضى الجبلية التى لم تفتح بعد . وبعد تحييد تونس على هذه الصورة تقدم عقبة مواصلا زحفه عام ٦٨٣ الى مراكش ، حيث استولى على طنجة واحتل الساحل الأطلسي حتى اغادير جنوبا . ولكنه وجد نفسه ، كما حدث للفاتحين العرب السابقين فى طرابلس وتونس ، بعيــدا عن قاعدته بمسافة ألف ميل ، وعلى الرغم من انه قوبل بمقاومة قليلة فى زحفه ، فان خط مواصلاته الطويل والمجرد من الحماية ، اقتضاه من باب الحكمة أن ينسحب الى القيروان . ولما كان يتوقع

ان يصادف مقاومة قليلة فى عودته كالتى صادفها فى زحفه الهجومى ، فقد قسم قوته الى عدة الوية صغيرة بهدف تغطية وتهدئة أكبر ما يمكن من المناطق الواقعة الى الغرب من تونس . ولكنه في هذا ارتكب غلطة خطيرة ، فعند بسكرة فى شرق الجزائر وقع هو وجنود لوائه فى كمين من قوة كبيرة من البربر وذبحوا على بكرة أبيهم . وظل شمال افريقية في مدى الخمس والعشرين سنة التالية من طنجة الى طرابلس لا يعرف سوى حكم قبائل البربر القاسى ، باستثناء جيوب معزولة قليلة للبيزنطيين قبل قرطاجة .

وبينما كانت معركة التوسع على أشدها فى كل هذه الجبهات . كان معاوية فى دمشق يضع خططا دقيقة لضمان الاستقرار الامبراطورية بعد وفاته . فلكي يتفادى تكرار الحرب الأهلية التي أعقبت مقتل عثمان وكادت أن تؤدى الي تمزيق الامبراطورية الوليدة ، عقد عزمه على ان ينبذ نهائيا القاعدة الانتخابية وان يؤسس نظاما للحكم يتعاقب فيه الخلفاء بالوراثة وذلك بتعيين ابنه يزيد خلفا له . وقد قبل اهل الشام هذا الاقتراح ، كما كانوا يفعلون ازاء أى شيء يعرض عليهم . ولم تعترض العراق بوجود زياد مسيطرا عليها . ولكن بعرض القضية على المدينة ومكة ، فان الحسين بن على الأصفر ، لكى يبين ان الثأر بين الأمويين والهاشميين لم ينته بموت أبيه وبتنازل أخيه عن الخلافة ، قد اعترض بشدة على ماسماه تقليدا غير ديمقراطى للنظام الروحى والرومانى . ولما كان بوسع الحسين بالطبع كحفيد للنبى ان يعتمد على تأييد شعبى ضخم فى الحجاز ، فقد قرر معاوية أن يتجاهل معارضة هذا المعترض الذى يحظى بالتوقير ،

لا ان يعمد الى الاكراه ، وهكذا نودى بيزيد وريثـــا للخليفة .

ولكن هذا الاسلوب من جانب معـاوية فسر في مكة والمدينة علي انه ضعف ، غير ان هدفه كان تفادي قيـام حرب أهلية أخرى ، ولا سيما انه قد جاوز الآن السبعين من عمره ، وكان يؤثر عدم الالتجاء الى القوة اذا بدا له ان غايته يمكن أن تتحقق بأساليب اخرى .

ولقـــد أدرك وهو على فراش الموت فى عام ٦٨٠ ان أسلوبه في تجاهل خصومه الهاشمين لم يؤت ثمرته . وحذر وريثه يزيد من ان الحسين قد يحاول الاستيلاء على الملك ، ولكنه نصحه بأن يتعامل معه برفق اذ يجرى فى عروقه دم الرسول . كما حذر يزيدا من عبد الله بن الزبير ، وهو عـــدو لدود للأمويين ، وقد قاد أبوه وعمه الزبير ومحمد بن أبي بكر ، الثورة ضد عثمان . والواقع انه لم يكد يصدر هذا النذير حتى نادى عبد الله بن الزبير بنفسه خليفة فى مكة ، وترك حسين (المدينة) الى الكوفة مع حرس من سبعين من الشيعة لاشـــعال ثورة العراق والاستيلاء على الخلافة من يزيد . ولكن مبادرة والى الكوفة عبيد الله بن زياد حالت دون وصول الحسين الى الـكوفة ، فانسحب الى الـكربلاء التى تبعد خمسين ميلا الى الشمال ، لكي يتدبر خطوته التالية . وقد أوفـد اليه عبيد الله رسولا يدعوه الى الاستسلام ، فلجأ الحسين الى كسب الوقت أملا فى جمع القبائل تحت لوائه . وبيد ان عبيد الله الذى فطن الي نواياه أمر بمحـــاصرة معسكره . وقد تعددت الروايات وتضـاربت فى وصف حقيقة المعركة التى تلت بعد ذلك . ولكن يبدو انه على الرغم من ان قوة الحسين القليلة كانت تواجه قوة تفوقها

عددا بنسبة خمسين الى واحد ، فان القوة الصغيرة صدت جنود الكوفة مدى ساعات كثيرة . وعنـــدما استنفدت كافة الأســـــاليب والحيل الدفـاعية وخر كافة اتباع الحسين صرعى ، واجه أعداءه بمفرده . فقد حمل على الكوفيين الذين تملكتهم الدهشة حملة شديدة حتى شق صفوفهم ببساله المستميت ، الى ان سقط بضربه سيف في العنق . وقد خر راسه ومثل بجسده بأمر من عبيد الله وترك جثمانه للجوارح . اما الرأس فقد احتفظ به وقيل انه دفن فيما بعد فى قبر بكربلاء التى أصبحت مدينة مقدسة فى العراق .

الفصل السادس :

الإرهاب والفتح في الشـرق

كان على يزيد بعد استشهاد الحسين ان يواجه النتائج المتفجرة لانتصاره في العراق . وكان عليه فضلا عن ذلك ان يحسب حساب عبد الله بن الزبير في مكة . ولكنه لم يعالج كلا الأمرين علاجا فعالا ، اذ كان شابا يؤثر التمتع بالحياة .

وفي غضون ذلك كان ثأر الدم الذي أهاجه استشهاد الحسين يفور الى حد يقرب من درجة الغليان ، وفي الحجـاز ازدهرت مكانة عبد الله بحمـلاته الشعواء على الأمويين . ولكن يزيدا ظل على تردده مدى عامين ، ولم يحزم أمره الا عندما انضمت المدينة الى مكة في التمرد ، وخلع عبد الله الوالي ، واعتقل ألفا من الامويين . عندئذ بعث من الشام بحملة تأديبية كان فيها كثيرون من العرب المسيحيين ، فاستولت على (المدينة) وزحف الى مكة حيث حاصرت المسجد الحرام وضربته بالمجانيق ، وفي هذا الحصار اشتعلت النار في الـكعبة وأصيب الحجر الاسود بصدوع . ولكن المهاجمين ما لبثوا بعد شهرين حين علموا بوفاة الخليفة ان انسحبوا عائدين ادراجهم ، في نوفمبر من عام ٦٨٣ .

لقد أصبح عبد الله بن الزبير الآن حاكما غير منازع

فى الحجاز . وقد انتهز فرصة مرض معاوية الثانى بن يزيد فنال اعتراف العراق به خليفة ، حيث أرسل أخاه مصعب ممثلا له ، وكذلك اعتراف مصر وجنوب بلاد العرب ، وجزء من الشام ذاتها . وهكذا بات الامويون يرتجفون أمام زحف الهاشميين المنتقمين .

ولكن الموقف تغير باختيار الأمويين خليفة آخر من الأسرة الأموية هو عبد الملك بن مروان ، الذى نشط على الفور لتعويض خسائر الأسرة ، واختار لتأكيد سلطانه على أهل العراق المتمردين المتقلبين رجلا قاسيا لا يرحم هو الحاج بن يوسف الذى كان معلما سابقا فى الطائف ومن قبيلة قيس فى وادى الفرات . وعندما بعث به لاستئناف حصار مكة استخدم الحجاج المجانيق بأشد ضراوة مما فعل رجال يزيد . وقد سقطت مكة بعد ستة أشهر ، وقتل عبد الله بن الزبير وهو يقاتل حتى النهاية بشجاعة الأسود .

وبوفاة ابن الزبير بدأ الهاشميون يقتتلون فيما بينهم . فسارع عبد الملك الى اخذ المبادرة فى يده ، ورغبة منه فى تحويل الحج عن معقل الهاشميين فى مكة ، فقد بنى مسجدا فخما فى بيت المقدس سماه قبة الصخرة ، وقرب تمامه شفع هذا بارسال حملة انى مدينة الكوفة المتمردة ، تمكنت بعد وعود بالعفو من هزيمة الوالى الهاشمى فى عام ٦٩١ .

بهذا انتهت الحرب الأهلية الثانية ، وانتصر البيت الاموى ، ولم تعد شبه الجزيرة العربية مركز السلطان والحكم فى العالم العربى . وشرع عبد الملك فى تعزيز سيطرة دمشق . فأجرى عددا من التغييرات الأساسية فى نظام الحكومة استكمالا لما بدأه معاوية ، مستهدفا وضع

مقاليد الأمور فى أيدى العرب والتقليل من تاثير الروم والفرس في تصريف شئون الخلافة . وكان فى طليعة اصلاحاته مرسوم باحلال اللغـة العربية محـل اللغتين اليونانية والفارسية باعتبارها اللغـة الرسمية فى الشام والعـراق ، وكانت النتيجة هى تقلد الموظفين العـرب بالتدريج لنطاق كبير من الأعمال فى الاداة الحكومية ممـا كان يشغله الروم والفرس ، وخاصة فى شـــئون المالية والضرائب والادارة . وكان الخليفة الجديد هو اول من سك عملة عربية محل العملات الرومانية والفارسية التى كانت حتى ذلك الحين وسيلة التبادل ، وقد بدأ بالدرهم الفضي والدينار الذهبى .

وفى الامبراطورية الشرقية عقد عبد الملك العزم على سحق الاضطرابات الشيعية نهائيا . ولهذا الغرض اتجه الى الحجاج ، الذى رأى ان نجاحه فى قمع العلويين فى الحجاز أثناء العامين اللذين أمضاهما واليا فى بلاد العرب يؤهله لـكى يحكم الشرق بالقبضة الحديدية . ومنـذ وصول الحجاج الى الـكوفة أظهر لرعاياه ما يدخره لهم . فقد توجه الى المسجد مباشرة وصعد واعتلى المنبر ونزع عمامته عن رأسه والقى خطبة نارية مشهورة قال فيها : « أرى رئوسا قد أينعت وحان قطافها » .

وكان لتهديده الوحشى اثره المنشود ، وخاصة بعد أن أعقبه بقمع تمرد فى البصرة بأشد همجية . ومنذ ذلك الحين قدر للأمبراطورية الشرقية أن تكابد حكما ارهابيا لا نظير له . فقد كان الناس يعدمون أو يسجنون لأدنى شبهة في التعاطف مع العـــلويين أو مناهضة نظام الحـكم الأموى . وقيل انه في غضون ولاية الحجاج للعـــراق وفارس التى دامت اثنين وعشرين عاما ، أعدم ما لا يقل

عن مائة وعشرين الف شخص ، ووجد فى السجن عند وفاته ثمانون الفا .

ولكن برغم ذلك فان ماعده أهل العراق (احتلالا اجنبيا) قد ضاعف من حقدهم على سادتهم أهل الشام ، وحنينهم الى قيام احياء علوى . وفى عام ٧٠١ وجد العلويون قائدا في شخص عبد الرحمن بن الأشعث الذى كان قائدا سابقا فى جيش على وكان رابضا فى خراسان منذ انتزاع معاوية السلطة . وقد زحف ابن الأشعث على راس قوة كبرى سميت (بجيش الطاووس) لفخامة زيها متجها الى العراق وعبر نهر الدجلة . وسرعان ما فتحت البصرة أبوابها له حفاوة بالمحرز الذى جاء لانقاذها من عسف الحجاج . ولكن انتصار العلويين كان قصير الأمد . فقد استرد أعداؤهم البصرة بعد تعزيزات قدمت من الشام ، وقيل أن أحد عشر الفا من سكانها دفعوا حياتهم ثمنا لمساعدة المتمردين . وقد ضم (جيش الطاووس) صفوفه من جديد خارج البصرة ، ولكن الشاميين كانوا اقوى منهم ، وفى الفوضى التى سادت اثر ذلك نجا ابن الاشعث بمعجزة هربا الى خراسان ، وطورد اتباعه وقتلوا تقتيلا على يد قتيبة بن مسلم ، والى الحجاج .

كان قتيبة محاربا قبليا يماثل الحجاج فى قساوته ، حتى تشمل الوديان الخضراء والبساتين النضرة والمدائن الجميلة التى تواترت الروايات عن وجودها فيما وراء نهر جيحون ، وقد وجد فى شخص قائد لامع مثل قتيبة الأداة التى تحقق غايته . وهكذا اطلق الحجاج قتيبة عام ٧٠٥ ، بعد اعادة الهدوء الى العراق وفارس ، فى اتجاه الشرق على رأس جيش يربو على خمسين الف مقاتل . وفى السنوات العشر التى تلت ذلك ، لم تكن

تمضي سنة دون أن تمتد حدود الامبراطورية العربية الى ما وراء فارس الجنوبية للاتحاد السوفييتي . بل ان جهود خالد بن الوليد وعمرو بن العاص تبدوشاحبةامام فتوحات قتيبة الذي انطلق جنوده المدرعون ينهالون بقذائفهم من المجانيق والكباش ـ وهى صواريخ العصور الوسطى ـ على مدائن تركستان وأزبكستان . وقد استولوا على بخارى وسمرقند ، واكتسحوا الاقاليم الشرقية حتى استولوا على فرغانة وخوارزم ، ثم وصلوا فى النهاية الى حدود الصين عند قشغر .

وعلى الجناح الجنوبى لقتيبة لم يكن محمد بن قاسم صهر الحجاج أقل نجاحا عندما اجتاح ما يعرف الآن بباكستان عام ٧١٠ ، واعتنق أهلها الاسلام . ومع ان مطامع الحجاج كانت ترنو الى الصين ، الا أن احدا من قائديه ، قتيبة أو ابن مسلم ، لم يستطع أن يتقدم اكثر من ذلك ، وبقيت الحدود الشرقية للامبراطورية العربية عند قشغر وطشقند .

لكن اذا كان الحجاج قد اسهم الى هذا الحد الكبير فى توسيع رقعة الامبراطورية العربية شرقا ، فقد كان من المحتم ان يثمر حكم الارهاب الذى فرضه ثماره المريرة . بيد أنه توفى عام ٧١٤ بسرطان المعدة ، وترك لغيره من الحكام الامويين أن يكابدوا النقمة والانتقام اللذين ولدتهما سياسته ، وخاصة من جانب الشيعة فى العراق وفارس، ومن الموالى الذين كانوا يعدون انفسهم مهضومى الحقوق .

الفصل السابع :

المـــد الأمـــوى
ثـم إنحســاره

في الوقت الذى كان فيه قتيبة ومحمـــد بن قاسم يكتسحان بجيوشهما اقطار آسيا الوسطى ، كان هنساك جيش عربى آخر يحتشد لبسط حدود الاســلام فى الغرب . فبعد أن ولى الوليد الأول الخلافة عام ٧٠٥ ، عين عمه والى مصر موسى بن نصير واليــا على الاقاليم الغربية . وكان شمال افريقية من طرابلس حتى المغرب قد انتقلت بعد وفاة عقبة فى الجزائر عام ٦٨٣ الى حكم البربر ، واضطر العرب الى الجـــلاء عن عاصمتهم الغربية الجديدة فى القيروان . وكان البربر يغـيرون على السهول كما يحلو لهم من مخابئهم الجبلية ، حيث كان العرب يعجزون عن تعقبهم . وفى نهــاية القرن السابع تغير الموقف يسيرا واستطاع العرب اعادة الهـــدوء الى المناطق الساحلية حتى تونس وأن يستردوا القيروان ، بيد انهم لم يتمكنوا الا بعد قدوم موسى بن نصير من اقتحام طريقهم الى الغرب .

فقد قرر موسى القضاء على تهديد البربر بصفة نهائية ، وتهيأ له بعد سلسلة من الهجمام القلابة غربا أن يقضى على كل مقاومة وأن يوطد سلطان العرب حتى طنجة . والواقع أن أسلوبه فى تخيير أسراه بين الانخراط فى جيشه بعـد

... الدين الاسلامى وبين بيعهم فى سوق العبيد كان اسنوبا ناجحا . وكان من بين هؤلاء الأسرى البربر طارق بن زياد الذى عينه عاملا على طنجة عندما عاد هو الى عاصمته فى القيروان .

ولم يكن يدور بخلده أحد ان طارقا سوف ينتوى شيئا غير دعم الحكم العربى فى الاقاليم التى فتحت حديثا . ولكنه أقدم فى عام ٧١١ على خطوة جسيمة هى عبور المضيق المحدود الذى يفصل افريقية عن أوربا على رأس قوة مختلطة قوامها سبعة آلاف من العرب والبربر واقامة راس جسر عند قاعدة الصخرة الكبرى التى اطلق عليها اسم (جبل طارق) .

وواصل طارق زحفه واســتولى على ما يعرف باسم الجزيرة . ولكن عند هذا الحد صدر اليه الأمر من موسى الذى ترك معقله فى تونس بانتظاره قبل متابعة الزحف فى شبه جزيرة ايبيريا . وكانت اسبانيا فى ذلك العهد يحكمها ملك من القــوط الغربيين هو لذريق الذى لقى مصرعه فى المعركة التى دارت مع العــرب واستسلم جنوده . ولم يلبث طارق برغم أمر رئيسه ان انقض على الاندلس واستولى على مالطة وقرطبة وغرناطة .

فى ذلك الحين (يونيو عام ٧١٢) وصل موسى أيضا الى اسبانيا مع جيش من عشرة آلاف رجل . وبعد ان استولى على مدينة اشبيليه فى فترة قصيرة وكان الزحف العربى السابق قد تجاوزها ، لحق موسى بنائبه قرب طليطلة حيث عاقب طارقا بوضعه فى الاغلال لعصيان أمره ، ثم اخلى سبيله فيما بعد .

وباستئناف الزحف العربى سقطت سلمنكة، وسرقوسة، وفالنسيا ، وطرغونة ، وبرشلونة ، وجيرونا ، وبحلول

خريف عام ٧١٣ كانت اســــبانيا كلها في ايدى العرب باستثناء نافار واستوريا . وعندئذ استدعى موسى بن نصير الى دمشق لتفسير اسباب مغادرة مقره في القيروان دون اذن . فترك ابنه عبد العزيز للاشراف على اسبانيا. وعاد ادراجه الى الشام لمواجهة الخليفة الذى كان قد ادركه المرض . ولكنه لم يعـــد بهياة النادم ، بل عاد في موكب المظفر يتبعه على امتـــــداد ساحل افريقية الشمالي رتل من اربعمائة أسير من امراء ونبلاء القوط الغربيين بتيجانهم واحزمتهم المذهبة . وفي اثرهم ثلاثة آلاف من العذارى الاسبانيات ومواكب لا نهائية من العبيد والأسرى مثقلين بغنائم الحرب .

ووصل موسى الى عاصمة الامبراطورية في فبراير من عام ٧١٥ قبل أسابيع معدودة من وفاة الخليفة متجاهلا امر ولى العهد سليمان الذى كان يطمع فى تاخير وصول الموكب المظفر الى ما بعد اعتلائه هو العرش بعد وفاة ابيه حتى يستأثر لنفسه بالمجد لدى ارتقائه . وكان الاستقبال الرسمي في في صحن المسجد الأموى بالغــا حد الفخامة والابهة .

اما بالنسبة لموسى بن نصير فان هذا الاستقبال المظفر كان بدء النهاية . لقد غفر له الوليد عصيان امره ، ولكن عندما توفى الخليفة بعد قليل وخلفه سليمان ، جرد موسى من جميع قياداته وصودرت ممتلكاته ، اذ لم يغتفر له سليمان حرمانه من الاستئثار بثمار النصر لدى ارتقائه العرش ، وقد استهدف موسى بعــد ذلك لاشد الامتهان والاذلال حتى توفى فقيرا معــدما في قرية نائية بالحجاز .

ولم يكتف سليمان بهذا ، بل امر بقتل عبد العزيز بالسم وهو الذى لم يكن يحكم اسبانيا فقط بامر ابيه موسى بل

اضاف أيضا جزيرة ماجوركا وغيرها من جزر البليار الى الامبراطورية العربية . بل انه استدعي محمدا بن قاسم من الشرق وأمر باعدامه . ولم يكن قتيبة بن مسلم باحسن حظا ، فقد اعتقل واعدم بعد محاولة قصيرة لرفع راية التمرد .

وبغض النظر عن هذه الأفعال الانتقامية الوحشية ضد ابرز وانجح قادة الوليد ، فقد ســـار سليمان فى حياته سيرة سلبية ، مؤثرا حياة الترف والملذات على الفتوح والمعارك ، تاركا شئون الدولة فى ايدي مستشاريه الذين كان منهم محسوبه يزيد بن المهلب . فقد عين يزيد مكان قتيبة واليا على خراســـــان ، حيث ندر أن يتفوق على سابقة فى الفتح . لـكنه لم يتفوق عليه الا فى القسوة ، اذا أخفق اخفاقا تاما فى توسيع حدود الامبراطورية . فى الجبهة البيزنطية فقط تمكنت جيوش الخليفة من الزحف وعبور الأناضول لمحاصرة القسطنطينية برا وبحرا . بيد ان هذه المغامرة تعثرت بتفشي الطاعون ، وربما كان هـذا الوباء هو الذى ادي الى مصرع ســـليمان ، فقد توفى عام ٧١٧ أثناء زيارة لقواته على الجبهة البيزنطية دون أن يعقب ولدا يرثه ، فخلفه ابن عمه عمر .

كان عمر الثاني على النقيض من سلفه ورعا زاهدا ، ورغبة منه فى استعادة الوحدة فى الامبراطورية فقد حظر لعن على فى المساجد طبقا للتقليد الذى ابتدعه معاوية ، ورد الى نسل على ضياعا كانت مخصصة للاحسان . وقد أدت هذه السياسة الى قيام هدنة فى العراق وفارس . فقد نسى العلويون والهاشميون مؤقتا أحقادهم ضد الأمويين . بل ان الخوارج المتطرفين كفوا عن العنف طيلة السنوات الثلاث التى دامت فيها خلافة عمر الثانى . وقد تحرى

في اسناد الوظائف العامة أن يختار لها أكفأ المسلمين دون نظر الى عصبية قبلية او انتساب الى الخليفة . وكان من المحتم أن يكون يزيد بن المهلب من أوائل المتأثرين بهذه السياسة الجديدة . فقد حوسب على أفعال النهب التى كان يتفاخر بها فى عهد سليمان ، وانتهى الامر بنفيه الى جزيرة للمسجونين فى البحر الاحمر ، بيد ان يزيدا لم يركن الى هذا المصير ، فبعد وفاة عمر الثانى عام ٧٢٠ فر من سجنه وجمع جيشا من مؤيديه واستولى على البصرة حيث قتل واليها وسطا على خزانتها . ولكن نهايته كانت على يد جيش من ثمانين الف مقاتل بعث بهم الخليفة الجديد (يزيد الثانى من اخوة الوليد) ، هزم ابن المهلب قرب الكوفة وقتله مع ذوى قرابته جميعا .

على ان هذا التمرد لم يكد يتم سحقه حتى شبت الثورات فى المناطق الجبلية لبحر قزوين ثم شرقا حتى فرغانة . ومرة أخرى اتحد العلويون والموالى فى قضية مشتركة . وعندما توفى يزيد الثانى عام ٧٢٤ ، قام زيد بن على حفيد الحسين الشهيد بأولى سلسلة الثورات التى كان مقدرا ان تبلغ ذروتها فى الاطاحة بالامويين . فأمر هشام الخليفة الجديد وآخر أبناء عبد الملك فى وراثة العرش ، بالقضاء على زيد بلا رحمة، وعين لهذه المهمة قريبا للحجاج يدعى يوسف بن عمر ، وكان واليا على اليمن .

واتخذ يوسف من تفويض الخليفة سلاحا يضرب به فى غير ترفق ولا رحمة زيدا واتباعه . ولكن الشبكة كانت تطبق على الامويين ، والفى هشام محاصرا بالاعداء فى كل جبهة . ذلك انه عندما قرر عمر الثانى فى عام ٧١٧ سحب الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية ، فطن الروم فجأة الى احتمال بلوغ الامبراطورية العربية طور

التضاؤل والانكماش . وبحلول عهد هشام اخذوا يتدفقون عائدين عبر الاناضول ويهددون معـــاقل الامبراطورية الشمالية . وكان نشاط العلويين والخوارج قد جعـــل المراق وفارس فى حالة غليان مستمر . وفى آســـيا الوسطى ثارت القبائل المحليـــة واستولت على سمرقند من أيدى العرب وهددت بخارى ، التى لم يكن انقاذها الا بثمن الوف من الضحايا العرب . ثم امتدت العدوى الى ارمينيا . وفى افريقية ثار ثلاثمائة ألف من البربر ، ودارت معركة دموية قرب القيروان عام ٧٣٥ مثلما امكن سحق الثورة . وبعد ست سنوات أشعلت دعاية الخوارج ثورة أخرى للبربر فى مراكش .

لقد بدا حكم هشام لونا من حصار طويل متصل . ولم يتحقق اى انتصار يمكن أن يخفف من جو الـكآبة السائد الا فى الجبهة الاسبانية . فان عبـــد الرحمن بن عبد الله والى أسبانيا منذ مقتل عبد العزيز الشاب قاد جنوده عبر جبال البرانس واستولى على ناربون حيث أقام مقرا للقيادة العامة بقصد الزحف شمالا الى باريس وشرقا الى ايطاليا . لكن حظه لم يصمد طويلا . ففى عام ٧٣٢ التقى بجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل الملقب بالمطرقة قرب بواتييه . ونظرا الان العرب سبق لهم مطاردة هؤلاء الفرنجة بسهولة من نهر الدوردونى الى نهر الاوار ، فان القائد العربى بالغ فى الثقة وغاب عنه ان يدرك أن شارل مارتل عمدالىانسحاباستراتيجى من الأرض المكشوفة حيث انعقدت المزية فيها للعرب ، الى مناطق الغابات حيث يغدون فيها قاصرين . ثم ان المعركة دارت فى جو قارس البرد لم يكن العرب مهيأين له ، وقد انتهت المعركة رغم هجمات العرب المتكررة بانكسارهم بعد مقتل عبد الرحمن .

لقد كانت هذه المعركة نقطة تحول فى توغل العرب فى اقاليم الفرنجة . وقد دب الشقاق والتحاسد بين العرب والبربر فى جيش الخليفة . وعلى الرغم من توجيه حملات اخرى فى وادي الرون والاستيلاء على إفينيون وفالنس وليون ، بل منها ما هدد باريس ذاتها ـ فان أوربا قد استيقظت الآن تماما الى هذا الخطر . وبحلول عام ٧٥٩ استطاع شارل مارتل بمساعدة تعزيزات من لومباردى وغسقونية واقليم الباسك ان يقصى العرب الفاتحين الى خارج فرنسا وأن يوقفهم خلف جبال البرانس .

ان المد الاموى المتمثل فى الفتوح الكبرى قد بدأ الآن ينحسر ، الى ان استهدفت الاسرة الاموية الحاكمة الى السقوط بسيف الانتقام الذى شهرته ثورة العباسيين .

القسم الثاني

عصـــر التفـوق

الفصل الثامن :

الـــثـــورة الـعـبـــاســـية

عندما انتزع مروان الثاني وهو من ابناء اخوة عبد الملك الخلافة من أيدي الخلفاء المترفين الضعاف الذين تعاقبوا على الحكم فى أواخر عهد الأسرة الاموية ، شبت الثورات في كل جزء من أجزاء الامبراطورية ، بما فى ذلك الشام ذاتها . وعلى الرغم من ان مروان كان بطبعه جُنــــديا محاربا وقد استطاع بعد تعديلات جذرية اجراها فى نظام جيوشه اخماد ثورات الخوارج ، والعلويين فى غير عنـاء كبير ، الا أنه اخطأ اذ ادار ظهـــره للامبراطورية الشرقية وانسحب الى دمشق ، تاركا نصر بن ســـيار واليا على خراسان مع قوات أبعد ما تكون عن الكفاية والاقتدار .

ولم يكن مروان على خبرة بالولايات الشرقية المثيرة للقلاقل والاضطرابات ، ومن ثم لم يكن على علم بالنار المضطرمة فى فارس والعراق . فهنا كانت تقلبات أشـــد خطرا من الثورات المحلية التي سحقها فى العامين الاولين من حكمه . فان العلويين الشيعيين لم يتحدوا فقط مع الموالي والطبقات المظلومة فى الامبراطورية الشرقية، بل ان القبائل اخذت تتحد أيضا وتدلى بدلوها مع المتمردين . كما أن الصراعات القديمة بين العرب من أهل الشـــمال وأهل الجنوب قـد تنوسيت ، وحتى الأعداء القبليون

بالوراثة قد وحدوا قواهم للمشاركة فى الاطاحة بحكامهم الشاميين . وكان أخطر من هذا كله ان حزبا قويا جديدا قد أقام نفسه على راس هذه الثورة البازغة . فقد كان العباسيون ــ الذين سموا بهـــذا الاسم لانتسابهم الى العباس عم النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى اتاح النصر فى موقعة حنين ــ يمتون بقرابة وثيقة لنسل على . ومع انهم كانوا يخالفون العلويين فى نظرتهم الى الخلافة ، الا انهم كانوا يشاطرونهم حقدهم على الأمويين . وهكذا كانوا يضم ثقلهم الى طوائف الثائرين ذوى أثر فعال فى خلق القوة القاهرة الغـلابة التى ستعمل على الاطاحة بالأسرة الاموية .

كانت حركة العباسيين قد بدأت فى عهد خلافة هشام على يد ابراهيم بن محمد احد حضرة العباس الذى كان وقتئذ رئيسا للمشيرة العبـــاسية . وكان ابراهيم يدير عملياته من مخبأ ناء قرب البحر الميت ، مستخدما كرسول للعلويين والخـــوارج وغيرهم من المتمردين الأقـــوياء فى الامبراطورية الشرقية ، عبدا فارسيا سابقا يدعى « أبو مسلم » . وكان أبو مسلم خراسانيا وقع فى أسر الجيوش الأموية وبيع فى أسواق مكة الى ابن ابراهيم ، وكان متآمرا بطبعه ويضمر اشد الكراهية لحكم الشاميين ، كما كان يجيد الدعاية رغم ما ينطوى عليه من الختل والمخادعة ، ولهذا كان أقدر داعية للثورة العبـــاسية لدى العلويين والشيعيين والسنيين على السواء . ومما يسر مهمته أن كثيرين من المستوطنين العرب فى الشرق كانوا قد تزوجوا من الأسر الفارسية واتخذوا اللغة الفارسية لسانا لهم . ولكن فوق هذا كله فالى أبى مسله ودهائه يرجع الفضل فى تناسي القبائل لخلافاتها فى سبيل الهدف الأكبر وهو استئصال شافة الأسرة الأموية الحاكمة .

وبحلول شهر مايو من عام ٧٤٧ استطاع ابو مسلم ان ينقل الى ابراهيم استعداده لتوجيه الضربة الأولى حالما يعطى مولاه الاشارة . فرد ابراهيم بالايجاب ، وفى الشهر التالى نشر ابو مسلم الاعلام السوداء التى اتخذها شعارا للعباسيين وزحف الى مر عاصمة خراســان . ومع ان جواسيس مروان تفطنوا الى التراسل السرى مما ادى الى اعتقال ابراهيم ووفاته فى السجن ، فان جيش ابى مسلم من القبائل العربية والفلاحين الفرس تدفق خــلال خراسان وعبر الحـــــدود العراقية ، ورفرفت اعلام العباسيين السوداء من أسوار حصون نهاوند ومن قصر الوالى الأموى فى الـكوفة ، حيث بويع فى أكتوبر من عام ٧٤٩ ابو العباس شقيق ابراهيم أول خلفاء العباسيين. وقد تحرك مروان متأخرا ، ولكن كل شيء كان ضده الآن ، فقد رحب العراقيون بالعباسيين كمحررين لهم ، وعنــدما وصل جيش مروان فى يناير من عام ٧٥٠ الى نهر الزاب المتدفق بالفيضان وهو احد روافد نهـــر الدجلة قرب الموصل ، ما لبث الجيش الشــامى أن تفرق بددا ولاذ بالفرار هلعا من المذابح التى استفاضت بها شهرة ابى مسلم . وكان مصير الذين نجوا منهم من التقتيل والتذبيح الموت غرقا فى النهر الفياض .

لقد أصبح الطريق الآن مفتوحا الى الشام . وسقطت دمشق بعد حصار قصير . وانطلق العباسيون يطاردون مروان الذى هرب الى مصر ، وقد وشى به بعض رجاله انقاذا لحياتهم ، وفيمـــا بعد أرسل راسل آخر حكام الامويين الى ابن العباس مع شعار الخلافة .

وقد شرع نظام الحكم الجديد الآن فى استئصال كافة آثار الحكم البائد . فاخذ يتعقب البقيـــه الباقيه من

الاسرة الاموية ويذبحهم ذبحا . وقد دعيت جماعة منهم الى مادبة أقامها عبد الله بن على عم الخليفة الجديد وقتلوا تقتيلا أثناء المأدبة . واحد فقط من اعضاء الأسرة التي حكمت الشام معظم المائة عام الاخيرة استطاع الافلات ، هو عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام ، الذى فر الى أسبانيا وفيها أقام مجدا للأمويين نافس فى أبهته وتقافته بلاط هارون الرشيد المشهور . بل أن الموتى لن يتركوا فى سلام . فقد نبشت رفات الخلفاء الامويين من قبورها وانتهكت حرمتها . واحرقت عظام سليمان ، ومثلها جثمان هشام بعد جلده ثمانين جلدة . والواقع أن الخليفة الجديد الذى لقب نفسه فى خطبته الاولى بلقب السفاح وعمه عبد الله ، بدا وكأنهما يتنافسان فى القسوة والانتقام . ولاول مرة فى تاريخ العرب ، اشتمل اثاث قاعة الاستقبال فى قصر الخليفة حصيرا من الجلد استخدم كبساط للسياف ، الذى أصبح يقف دائما على أهبة الاستعداد بجانب عرش مولاه .

وعلى الرغم من روح الحماسة التى حارب بها جيش أبى مسلم والاستجابة الفورية من جانب الجماهير الفارسية والعراقية للثورة العباسية ، فان مثل هذا الانجاز ما كان يمكن أن يتحقق لولا ان الامويين قد دمروا أنفسهم الى حد كبير قبل رفع الرايات السوداء . فان الفساد كان قد حل منذ عهد سليمان البدين المتبذل . وغدت المادية والجشع تنخران فى كيان الخلافة وتستنزفان قواها . وبتدفق الغنائم والكنوز من كافة الأرجاء تخلى الامويون عن أساليب الحياة الصحراوية الخشنة التى كان يحياها أباؤهم ونسوا التعاليم الروحية للاسلام ، وانغمسوا انغماسا كليا فى شرب الخمر ،

والميسر ، وسباق الخيل ، والقنص بالكلاب السلوقية والفهود . بل ان الزنا الذى كانت عقوبته الموت اصبح شائعا فى الشام . وغدت المواخير تجارة رائجة بما يجلب اليهـا من الجوارى من سبايا الحرب ، من يونانيات وفارسيات وتركيات وافريقيات واسبانيات . بل قيل فى هذا ان الوليد الثانى كان يستحم بانتظام فى بركة من الخمر .

بيد ان الترف والانحلال لم يكونا وحدهما السبب فى توهين عزيمة الامويين واضعاف ارادة المقـاومة عندهم وتيسير الأمور أمام العباسيين . فقد كانت سياسة أكثر خلفائهم هى محاولة الحكم بأسلوب (فرق تسـد) او الايقاع بين العرب من أهل الشمال واهل الجنـوب . وبالطبع فقد سارع العباسيون يبينون للقبائل كيف كان يجرى استخدامهم لاستدامة سيطرة الشاميين عليهم .

والى جانب هذا كان الأمويون قصار النظر الى حـد بعيد فى تمسكهم بنظام طبقى كان فيه العرب هم الطبقة الارستقراطية الحاكمة ، والموالى فى وضع المواطنين من الدرجة الثانية. وقد ادى هذا الى اثارة الحفيظة والمرارة فى نفوس الموالى من ابناء العراق وفارس وجعلهم اداة طيعة لاية حركة ثورية ، ولا سيما انهم كانوا اكثر ثقافة بحكم اتصـالهم السابق بالحضـارتين البيزنطية والفارسية .

***

ان الثورات كثيرا ما يكون لها اسلوب فى التهـام القائمين بها ، كما قدر لابى مسلم وللخوارج والعلويين المنكودى الحظ أن يعرفوا عما قريب . وكان اول من استهدف لهذه المعاناة هم الخـوارج ، الذين ادى بهم اعتقادهم بأن الخلافة يجب ان تشمل على مجلس منتخب

لا على حاكم معين مستبد ـ ادى بهم الى الثورة على النظام الجديد كما ثاروا من قبل على النظام القديم . فما كان من أبى مسلم الذى عين واليا على خراسان الا ان قاد جيشه ضدهم ، وقيل انه ذبح خمسين ألفا منهم قبل تهدئة الأوضاع فى الولاية . لكن مثل هذه القصص البشعة عن مسلك أبى مسلم بدات تنتشر وتتجاوب اصداؤها الى حد راى معه حتى ابو العباس الملقب بالسفاح أن يبعث بأخيه أبى جعفر للتحقيق والاستقصاء. وقد أكد التحقيق كثيرا من اعمال القسوة المعزوة الى أبى مسلم ، كما كشف عن وجود أطماع خطرة له بيتت لتنفيذها . وقد أوصى ابو جعفر الذى ازعجته نتائج التحقيق أخاه أبا العباس بعزل أبى مسلم ، بل بالقضاء عليه اذا تيسر . بيد ان الخليفة برغم ميله الى الأخذ بهذه المشورة خاف خوفا شديدا من ردود الفعل فى خراسان ، ولم يعمل بها .

وعند هذا الحد انتكس حظ أبى مسلم ، ففى غضون اشهر قلائل توفى ابو العباس بمرض الجدرى ، ونودى بأبى جعفر خليفة ملقبا بالمنصور . وقد حاول أبو مسلم جهده استرداد اعتباره لدى مولاه الجديد ، وعندما سعى عبد الله عم أبى جعفر الى منازعته فى العرش ، اندفع أبو مسلم من خراسان للدفاع عن الخليفة الشرعى . وكان محتما أن ينتصر أبو مسلم ، ولكنه اخفق فى أن يحرز الانتصار لنفسه . ففى طريق عودته الى خراسان دعى لزيارة بلاط أبى جعفر ، وهى دعوة أطاعها بلهف ، ظنا بأنها تنطوى على مكافأته عما فعل . ولكنه كان مخدوعا الى حد بعيد ، فانه ما كان يصل حتى بادر أبو جعفر باتهامه بجرائمه وتطلعاته ، وهى اتهامات عقوبتها الموت . ولدى اشارة معينة من الخليفة

انقض الحرس على ابى مسلم ومزقوه اربا والقوا بجثته المختلطة فى نهر الدجلة .

وكان الدور التالى على العلويين الذين اقنعهم ابو مسلم بدعايته المموهة بأن العباسيين انما يخوضون معركتهم هم انفسهم . وبعد انقضاء عشر سنوات دون ما اعتراف من النظام الجديد بمطالب العلويين ، قامت ثورة فى العراق والحجاز احتجاجا على ما عدة العلويون الآن اغتصابا من جانب العباسيين . وقد رد ابو جعفر بلا رحمة ، فاخمد الثورة ، واعدم زعماء العلويين .

وكان يمكن الظن بأنه القضاء على الأمويين والخوارج ، ثم ما تلا ذلك من التخلص من ابى مسلم والعلويين ، فقد ساغ لأبى جعفر ان يطمئن وان يقضى بقية حكمه الذى دام واحدا وعشرين سنة دون خوف من منافس . ولكن يبدو انه ما برح غير واثق من العرب ابناء جلدته ومن خدمتهم بالاخلاص لنظام حكمه . فانه منذ ذلك الحين حرص هو ومن وليه مباشرة من الخلفاء على الاستعاضة عن العرب بالفرس فى ارجاء الخلافة . وقد نقل مقر الخلافة من الشام الى العراق . وادخل الثقافة الفارسية ونظم التعليم والعادات الاجتماعية ، وكف عن اختيار حرس الخليفة وضباط الجيش من المصادر العربية ، وجعل اختيارهم من خراسان ثم فيما بعد من قبائل التركمان فى الشرق . وكان لهذه التغييرات الثورية أثر بغيض فى قطاعات معينة من السكان العرب ، الذين أصبحوا يشعرون انهم غدوا فى الواقع ، وان لم يكن شرعا ، مواطنين من الدرجة الثانية فى امبراطوريتهم ذاتها .

بيد ان هذا كان بالنسبة للموالى فى فارس والعراق

فجر عصر جديد ومجيـــــــد . فان المدافعين منهم أي العباسيين قد فـازوا بنصر باهر ومكان تحت الشمس للمظلومين من ابنا النصف الشرقي للامبراطورية ، وما هو الا ان انتهى حمام الدم الذى كان في البداية حتى شرع نظام الحكم الجديد في تطعيم ملكه بالابهة الفارسية .
وكان أول أعماله في هذا الصدد هو اتخاذ عاصمة جديدة له . ففي عام ٧٦٢ اختار ابو جعفر موقعا على نهر الدجلة اسمه بغداد غير بعيد عن العاصمة الفارسية القديمة طيسفون ، التى اتخذ من أطلالها محجرا لتزويد العاصمة بمواد البناء . ونزعت أبواب دمشق والكوفة وواسط المعقل الحــربى للحجاج وارسلت لتركيبها فى المدينة الجديدة ونقل من طيسفون كل شيء سوى القوس الضخم لقصر الأمبراطور الفارسي الذى تحدى كافة الجهود لنزعه من مكانه .

والواقع ان التاثير الفارسي قد شمل بالتدريج كل انماط الحياة العربية ، فأصبحت الالقـــاب فارسية ، والزوجات فارسـيات ، والاغاني فارسـية ، والافـكار والمعتقدات فارسية .

وقد تجلت هذه المنازع الفارسية على اشدها فيما قام به العباسيون من تغييرات دستورية . فقد ادخلوا المنصب الفارسي للوزير ذى الصلاحيات الكبيرة ، وبهذا التعديل للسلطة الزمنية الذى طرأ على نظام الخـــلافة ، اصبح الخليفــــــة أقرب الى أن يكون الرئيس الروحى للدين الاســـــلامي ، بينما تدار شئون الدولة بيد رئيس الحكومة .

وكان أول من شغل منصب الوزير هو خالد بن برمك ، الذى كان ابوه كبيرا للكهنة البوذيين فى بلخ فى خراسان

الشرقية ، وقد ورثه ابو جعفر من اخيه أبى العباس الذى توثقت بينهما العلاقات الشخصية الى حد أن زوجتيهما كانتا تتبادلان ارضاع اطفالهما . وكما كان الحال مع أبى العباس فكذلك أصبح البرمكى المسلم صديقا حميما لأبى جعفر ومستشارا خاصا . والواقع ان نفوذ خالد بن برمك هو الذى حفز على دراسة وتنمية الفنون والعلوم اليونانية والفارسية التى جعلت من العاصمة الجديدة واحدة من أكبر المراكز الثقافية فى العصور الوسطى .

ولم يكن أبو جعفر بطبيعته مثقفا ولا منحازا الى اللهو ، ولكنه كان أقرب الى الزهد والتقشف ، وكانت له مواهب رجل الدولة والسياسي المقتدر ، وقد هيأت له هذه الصفات ان يمنح الخلافة أكثر من ثلاثين عاما من السلم . واستطاع بمقدرته أن يكبح كل تهديد لسلامة الدولة ، بل ان يوسع حدود الامبراطورية فى الشرق باضافة طبرستان الولاية الجبلية جنوبى بحر قزوين وكذلك قندهار على الحدود الهندية الى رقعة الدولة . وقد تهيأ للخلفاء العباسيين بفضل يقظته ونشاطه أن يبلغوا بالخلافة منذ عهده الى عهد ارتقاء حفيده هارون الرشيد ذرى من المجد والأبهة لم ينل منهما سرطان الحروب الأهلية . ان اسم هارون قد يتصدر ألمع فصل فى تاريخ العباسيين ، بيد ان أبا جعفر هو مؤلف المقدمة .

وكان الشغل الشاغل لجعفر الى جانب شئون الدولة هو تأسيس اسرة حاكمة من نسله ، على غرار ما فعل معاوية من قبل . وفى هذا السبيل لم يتورع عن استخدام أفتك الأسلحة لضمان الخلافة لولده محمد . فان أبا العباس كان قد أوصى بالخلافة بعد وفاة أبى جعفر لابن أخ له هو عيسى بن موسى . وقد حاول أبو جعفر أول

الأمر التخلص من عيسى بالسم ، وعنـــدما فشل جاء بشهود اقسموا انه لم يكن ثمة عهد بين أبى العباس وابن اخيه ، ولكن عيسى استنجد بشهود أكثر شهدوا الى جانبه . فأمر الخليفة باحضار ابن عيسى امامه ، وعلى مرأى من الأب قيـــد الابن ، وأرغمه على الركوع فوق بساط الاعدام ، وعندئذ طلب أبو جعفر من المتطلع الى العرش والسياف قائم فوق رأس الضحية أن يغتنم هذه الفرصة الأخيرة فيسحب مطلبه وينقذ ولده . وقد كان لهذا التهديد الوحشي أثره المنشود ، وانسحب عيسى وولده الى ضيعة قرب الكوفة مع منحة مالية جزيلة . وعندما توفى أبو جعفر عام ٧٧٥ وهو فى طريقه الى مكة للحج ، ولى محمد الخلافة . وهكذا حقق أبو جعفر مطمحه الاكبر ، وأسس الاسرة الحاكمة التى تعاقب فيها خمسة وثلاثون من الخلفـــاء العباسيين زهاء خمسمائة عام ، الى أن زحفت جحافل هولاكو خان ودمرت بغداد تدميرا .

الفصل التاسع :

البعث الأمــوى فى أســـبانيا

بينما كان ابو جعفر يعمل على دعم الخلافة العباسية فى الشرق بمثل هذا التدقيق ، كان يجرى فى اسبانيا تحول بالغ تحت قيادة عبد الرحمن اول أمير لقرطبة. ففى السنوات الاخيرة لحكم الامويين كانت الجيوش الاسلامية فى الغرب قد منيت بانتكاسات خطيرة جعلت سيطرتهم فى اسبانيا تقتصر على الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة . وكانت الخلافات الداخلية تمزقهم شر ممزق ، وامتدت الاحقاد القديمة بين عرب الشـــمال وعرب الجنوب الى اسبانيا ، وكانت قبائل البربر دائمة الانتقاض والتمرد على حكم العرب بسبب هضم حقوقهم ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية . ولم ينقــــذ المستوطنين العرب من الفناء سوى مجىء جيش من سبعة وعشرين الف مقاتل أرسل من الشـــــام لسحق ثورة البربر . وقد استوطن القادمون بدورهم البلاد فيما بين اشبيلية وجاين والجزائر والقيرا . ولكن نذر الثورة تعالت من جديد بعد أن رفرفت رايات العباسيين السوداء على انقاض الخلافة الاموية . وبينما كان يوسف الفهرى أحد الحكام من سلالة عقبة بن

نافع منهمكا فى اخمـــاد واحدة من حركات التمرد ، اذ جاءت الانباء بأن أميرا شابا من الأمويين هو عبد الرحمن بن معاوية قد هبط الى الأرض الاسبانية قرب غرناطة بقصد الاستيلاء على الامارة .

كان عبد الرحمن فى العشرين من عمره عندما قضى العباسيون على أسرته ، ولكنه استطاع الافلات بمعجزة حتى وصل بعد رحلة طويلة شاقة ذاق فيها الاهوال الى سبته فى عام ٧٥٥ والتجأ الى بعض البربر من اقارب أمه .

وقد شرع على الاثر فى العمل لكسب اســـبانيا الى صف الامويين . ومن حسن حظه أن العرب فى اسبانيا تناسوا خلافاتهم واتحدت رغبتهم فى التخلص من يوسف، وأبدوا تمام استعدادهم فى الانضواء تحت لوائه لتحقيق هذه الغاية . ولما ادرك يوسف مدى قوة هذا المنافس الخطر حاول اكتسابه الى جانبه بالرشى والوعود ، بما فى ذلك تزويجه من ابنته ، ولكن عبد الرحمن تجاهل هــذه العروض وزحف مظفرا مرحبا به الى اشبيلية وارشيدونا وسيدونا . وعندئذ لم يكن أمام يوسف سوى القتال او الهرب . فقرر أن يقاتل ، وزحف من عاصمته قرطبة حتى التقى بجيش عبد الرحمن على ضفاف نهر الوادى الكبير فى صباح الرابع عشر من شهر مايو عام ٧٥٦ . وكان النصر حليف عبد الرحمن الذى دخل قرطبة مظفرا بعد فرار يوسف .

وهنـــا اثبت الأمير الشاب انه رجل دولة وذو روح انسانية كما هو جندى باعلان العفو العام وتحريم السلب

والنهب . بيد ان سيادته على قرطبة لم تجعل منه حاكما غير منازع لكل اسبانيا الاسلامية . فمن ناحية ظل يوسف بشير القلاقل مدينة طليطلة مدى ثمانية أعوام ، الى ان قتل في النهاية وتم الاستيلاء على طليطلة عام ٧٦٤ . ومن ناحية أخرى فان البربر الذين وقفوا أول الأمر موقفا سلبيا ما لبثوا أن عاودوا تذمرهم من مقام توزيع الاراضى الذى راوه مجحفا بهم ، واخذوا يقاومون الحكم العربي عشر سنوات أخرى . ثم كانت هناك محاولة الخليفة العباسى أبى جعفر للاستيلاء على اسبانيا لصالح العباسيين ، والتى انتهى عام ٧٦٣ بقطع رأس مبعوثه المنكود وارساله "_ بغداد محفوظا في الملح والكافور وملفوفة بالراية السوداء . وفي ختام هذا كله ، في عام ٧٧٧ : سعى شارلمان امبراطور الفرنجة الى التحالف مع صهر يوسف وبعض زعماء القبائل العرب المنشقين في منطقة برشلونة وزحف لمهاجمة عبد الرحمن فى قرطبة . لكن شارلمان لم يستطع التقدم الى ابعد من سرقوسة ، التي اغلقت ابوابها فى وجهه وبدات تقاومه ، والفى نفسه هدف الهجوم من كل جانب . فقد زحف عليه عبد الرحمن من الجنوب ، وتعرض جناحاه لمضايقات شديدة قام بها جيش من ثوار الباسك الذين عانت اسرهم من حكم الفرنجة والقوط . وهكذا انسحبت قوات الفرنجة شمالا عبر جبال البرانس تاركة آلاف القتلى فى مفاوزها وكهوفها الغادرة ، بما فيهم زعيمهم المشهور رولان الذى خلد الأدب الفرنسي موته البطولى فى « اغنية رولان » .

وبهذا الانتصار أصبح الامير الاموى اخيرا قادرا على توجيه نشاطه من القتال الى اصلاح الحكم في اسبانيا

الاسلامية ، والى توحيد طوائف العرب والبربر المتحاربين دون خوف من الهجوم عليه سواء من داخل الامارة او خارجها ، فقد تحدى أقوى الحكام في الشرق والغرب واثبت انه ندا لهم ، وعمل على توطيد السلم والنظام والاستقلال في اسبانيا . وتهيأ له بما اغدق على البربر في شمال افريقية واسبانيا أن يجعل من هؤلاء الذين جبلوا على التمرد واثارة القلاقل جيشا منظما جيد التدريب قوامه أربعون الف مقاتل .

بيد انه برغم هذه الانجازات كلها لم يعمد قط الى اتخاذ لقب الخليفة . بدلا من ذلك كان معروفا في كافة ارجاء ملكه باسم أمير اسبانيا . وبالمثل ظل خلفاؤه على مدار زهاء قرن ونصف بعد وفاته يتخذون هذا اللقب . ومهما يكن فان مكان عبد الرحمن في التاريخ لا يعود الى لقبه . وانما الى التراث الجمالي والابداعي الذي خلفه في اسبانيا . فان هذا التراث لم يضـــــارع فقط الأبهة الفارسية التي اتسمت بها الخلافة العباسية ، ولكنه ظل أيضا أثرا باقيا شاهدا على الفن والعمارة العربية على مدار مئات الأعوام بعد ما دمرت أمجاد بغداد وعدت عليها عوادي النسيان ، وعبر العديد من القرون قبلمـــا بدأت أوربا تقيم لنفسها تراثا ثقافيا خاصا بها .

لقد شرع عبد الرحمن بعد استتباب السلم والأمن من الفزو في اسبانيا في تنمية مواردها بنشاط وعزم . فبنيت القنوات المائية لتزويد مدن الامارة بالمياه النقية ، ونهضت مشروعات الري ، وادخلت نباتات وفـــواكه كالخوخ والرمان . وفي عام ٧٨٦ ، اي قبل وفاته بعامين ،

شيد مسجد قرطبة الكبير . منذ القرن السادس عشر قد ضم هذا المســــجد بين جنباته كاتدرائية رومانية كاثوليكية ، ولكن على الرغم من هذا ومن ازالة كل اثر لممارسة شعائر الدين الاسلامي فى اسبانيا مدى قرابة اربعمائة عام ، فما يزال هذا المسجد الكبير يشار اليه علي لافتات المدينة وفى الدليل الرسمى بانه « المسجد » .

بل ان عبد الرحمن عمد الى أكثر من تجميل المدن وبناء المساجد . كان يمتاز بعدل موفور وروح ديمقراطية، ومن ثم قصد الى منح شعب الامارة قانونا للعدالة . فقبل الفتح الاســـلامى كان النبلاء القوط ورجال الدين يتمتعون بكل السلطة وبكافة الامتيازات ، وكان الفلاحون يعيشون طبقا لاهواء حكامهم . فالغي عبد الرحمن هــذه المظالم ومنح الفلاحين الاسبان قانونا للحقوق والحماية القانونية لم يحظوا قط بمثله من قبل ، فلا غرو اذا كان بعض المؤرخين الغربيين مثل رينهارت دوزى قد اقر بأن « الفتح العربى لاسبانيا كان نعمة لها » .

ومن سوء حظ اسبانيا والعرب ان عبد الرحمن لم يفسح له فى الأجل بعد الثامنة والخمسين لكى يواصل أعماله الاصلاحية . وكان أولئك الذين أعقبوه فى الحكم خلال السنوات المئة التالية فريقا هزيلا بالمقارنة اليه ، انصرافا عن شئون الحكم والاصلاح الى الصيد والمباذل ، وبينما اثمرت جهود عبد الرحمن ثمارها واخذ اقتصاد اسبانيا يزدهر ويزداد ، فان خلفاءه انحازوا الى اجتناء الثراء والخمول ، وأدخلت الانماط والعادات الفارسية من بلاط هارون الرشيد ، واستبد بالحكام ذلك الافتتان

المستطير بالترف الذى ساعد على تقويض الأسرة الحاكمة الام في الشام . وما لبث البربر ان عادوا الى سالف ديدنهم من الانتقاض محاولين الاستيلاء على الامارة . وبانتشار روح التمرد والثورة بدات الولايات تنسلخ من حكم قرطبة وتعلن استقلالها .

لقد تسنم العرب فى عهد عبد الرحمن ذرى القـــوة والشهرة . وفي عهد أبنائه اخذوا الآن ينحدرون سراعا الى الهاوية .

الفصل العاشر :

ألـف لـيـلة ولـيـلة

فى غضون أقل من عشر سنوات بعد وفاة أبي جعفر ، طفرت الخلافة العباسية من ربيع مزهر الى صيف متألق . لقد أصبح هارون الرشيد ، حفيد أبى جعفر ، هو الخليفة ، وبدأ عصر الف ليلة وليلة . واذا كانت الخطى أسرع من المعدل الطبيعي ، وكانت حرارة الصيف تنذر فى تضاعيفها بأعاصير قادمة ، فان أحدا لم يفطن اليها أو لم يحفل بها . ان دروس الامبراطورية الرومانية قد تنوسيت أو لم يتعلم منها أحد . وانغمست بغداد فى الأبهة والترف ، غير مبالية بالغد .

لقد جمعت الثروات ، وكان المال ينفق على نطاق يفوق ما ينفقه آل روتشيلد وروكفلر فى العصر الحديث . ومنح هارون أخاه ابراهيم وكان مغنيا محترفا أكثر من مليوني دولار ، بالعملة الحاضرة ، سخاء وكرما . وكدست أسرة البرامكة ـ الوزراء بالوراثة لدى أبي جعفر وهارون ـ ثروة خيالية قيل انها جاوزت ثلاثين مليون دولار . وذكر ان أم هارون نالت أكثر من أحد عشر مليون دولار كانت تنفقها على زينتها وقصورها . واكتسبت زبيدة الحسناء زوجة الخليفة شهرة أسطورية في الانفاق مثل الخليفة ذاته . وفى قصور الخلافة التى كانت تحتل ثلث المدينة

كانت تصر على الا يشرب ضيوفها الا فى كئوس من ذهب أو فضة مرصعة بالجواهر . وحتى أحذيتها كانت تزدان بالاحجار الكريمة ، وقد ذاع انها فى رحلة حج الى مكة انفقت ما يربو على مليونين ونصف مليون دولار .

وكما كان الحال فى أواخر عهد الخلفاء الأمويين ، كانت نساء الطبقة الراقية يتمتعن بقدر كبير من الانطلاق والتحرر ، وينافسن الرجال فى التدخل فى شئون الدولة، ويتحفن المجتمع بأحاديثهن الطلية ومواهبهن الموسيقية . وقد شاع التبذل لكثرة عدد الجوارى والاماء وساد الترف بيوت الأغنياء الى حد لم يعرف له مثيل فى العصور الحديثة حتى فى قصور ملوك البترول الاقطاعيين . وكانت البيوت تبرد بالثلج ، وادوات المائدة لا تقل بحال عن الفضة ، وقطع الأثاث تطعم جميعها بالابنوس واللؤلؤ . وكان للأمين ابن هارون ثلاثة قوارب كبرى على اشكال الأسد والدلفين والنسر ، تكلف كل منها أكثر من مائتى وثمانين الف دولار ، صنعت لرحلاته النهرية . وكانت الخمر تشرب علنا ، بينما كانت الأغانى وقصائد الشعر فى مدح الخمر تتردد فى حجرات تعبق بالعنبر المحترق .

بل ربما كانت فارس والعراق اشهر منهما اليوم بثروتهما فى الأثاث والمنسوجات . كانت الاقمشة الحريرية المزدانة بخيوط الذهب تصنع فى اقليم « فارس» من اجل سيدات البلاط . وكان قماش « التافتاه » الحريرى الذى ينسج فى فارس كثير الانتشار ويصدر بمقادير كبيرة الى أوربا . ومن بخارى الى دمشق كان يصنع كل شكل من الأثاث والادوات المنزلية . من الأرائك الى المقصات ، ومن الدمقس الى الأقداح المعدنية . وكانت

صناعة الزجاج فى الشام والورق فى ســـــمرقند اول ما صدر من هذه السلع الى العالم الخــارجى . وكان الزجاج الملون الذى جاء به الصليبيون لاول مرة الى أوربا تقليدا للأنواع المطلية بالميناء المصنوعة فى الشام . اما عن الثروة المعدنية فان ثروات الخلافة فيها كانت تجــاوز الحصر . كانت كل جوهرة تتحلى بهــا سيدات المجتمع العباسيات مما يسهل وجوده فى نطاقهــــا ـ الذهب والفضة من خراسان ، واللؤلؤ من البحرين ، والياقوت واللازورد من بلاد ما وراء النهر ، والفيروز من نيسابور ، والانتيمون من أصفهان . وكانت الشام تنتج الرخام والكبريت ، وفرغانة تزود بالزفت والغاز والزئبق .

وكان الشطرنج ، المستورد من الهند ، والنرد ، هى الالعاب المفضلة لدى الأغنياء . وكان البولو ، المجلوب من فارس ، والرماية بالسهام ، وسباق الخيل ، والصيد، هى الرياضات الرئيسية خارج الدور . وكانت المراهنة على السباق تجرى حامية ، وتدور بمبالغ كبيرة . اما عن القنص ، فقد أدخل فى تدريب الصقور من فارس ـ وهى عادة ما زالت باقيـــة الى اليوم فى الأردن والسعودية والخليج العربى .

ومن وراء كل هذا الترف والثراء قامت تجارة رائجة وصناعة مزدهرة . فقد كانت مئات السفن النهرية من كل انحاء الامبراطورية الشرقية ترسو على امتداد أرصفة بغـــــداد والبصرة ، من الصين حتى أفريقية ، محملة بالحرير والعطور والصينى والأصباغ والتوابل والياقوت واللازورد والفراء والعـــاج والعبيد للبيع فى أسواق العاصمة ، حيث كانت الحوانيت تجمع بعضها مع بعض حسب نوع التجارة او الحرفة ـ فالصاغة فى شارع ،

والخياطون فى آخر ـ كما هو الحال اليوم . وكان التجار العرب ، ومنهم السندباد البحرى الأسطورى ، يحملون الى الشرق الأقصى والى اوربا وشمالا حتى روسيا ، الأرز والحبوب والكتان والحرير والعطور واللؤلؤ والزجاج والمعادن والسكر والفواكه والخضر ، وهى منتجات مصر والشام والعراق والخليج العربى والوديان الغنية الخضراء فيما بين بخارى وسمرقند . وغالبا ما كان هؤلاء التجار يحملون ايضا رسالة الاسلام ، التى تأهلت فى جنوب شرق آسيا ، وعلى الأخص فى الجزر التى تتكون منها اليوم دولة اندونيسيا .

وكان فى الامبراطورية العباسية ايضا مستوى رفيع للخدمة الاجتماعية والصحة العامة ، فقد كانت العاصمة وحدها تفخر بأن بها سبعة وعشرين الف حمام عمومى . وقد تقدم الطب والصيدلة تقدما سريعا . واقيم نظام للامتحانات لمن يمارسون الطب والصيدلة لمنع استغلال الدجالين للجمهور . ويقال أن فى العاصمة وحدها اجتاز هذه الامتحانات أكثر من ثمانمائة طبيب . وقد ادخل نظام تشريح الحيوانات للأبحاث الطبية فى وقت مبكر فى القرن التاسع ، وظهر لأول مرة كتاب تعليمى عن طب العيون . وقد أنشىء أول مستشفى فى العاصمة على يد هارون ، وأعقبه انشاء أكثر من ثلاثين مستشفى فى شتى أرجاء الخلافة ، وقد زود كل منها بمستوصف ، وفى بعض الحالات بمكتبات طبية وتسهيلات تعليمية لكلية الطب .

وكان رجال الطب المسئولون بصفة اساسية عن هذا التقدم فى الطب والكيمياء هم جابر بن حيسان وابو بكر الرازى ، وقد اطلق على جابر الذى جاء من الكوفة بالعراق لقب « ابو الكيمياء العربية » . وبسبب نزعاته

الحماسية فى التجارب ، فقد عمل على تطوير النظريات الكيماوية اليونانية والمصرية ، وعلى الأخص نظـريات أرسطو ، في مجال العناصر وتحويل المعادن الخسيسة . وبفضل أبحاثه حدث تقدم كبير فى عمليات التكلس والتبخر والذوبان والتبلور . وقد ترجمت مؤلفاته ، التى لا يزال باقيا منها حتى اليوم أكثر من عشرين مؤلفا،الى اللاتينية وظلت عدة مئات من السنين بعد وفاته ذات تأثير بالغ فى معامل أوربا وآسيا . وكان أبو بكر الرازى وهو فارسي من الرى قرب طهران أكثر تأثيرا ، وقد وصف بأنه « أكثر أصالة من كافة الأطبـاء المسلمين وأوفر خصبا كمؤلف » . ومن بين مؤلفاته التى جاوزت المائة عديد من الكتب فى الكيمياء ترجمت الى اللاتينية واحتلت مكانة مرموقة كمصدر للمعرفة الكيميائية فى اوروبا على مدار الخمسمائة عام التالية . وبالمثل كانت تقاريره عن الجدرى والحصبة تحتل الأولوية فى مجالها ، وقد ترجمت الى اللاتينية فكانت أعلاما للأطباء الاوربيين . وكانت أهم أعماله على الاطلاق موسوعته الطبية الشاملة التى استخلصها مما تلقاه العالم العربى من مصادر يونانية وفارسية وهندية ومن أبحاثه الخاصة ، فأصبحت واحدة من أبرز الملخصات فى علوم الطب ، وقدر لها أن توجه وتؤثر فى الفكر والبحث الطبى فى الغرب مدى قرون تالية .

وقد بدأت الزراعة تزدهر بعد طول امراض ، فأنتجت الارض محـاصيل وافرة من الشعير والقمح والأرز والتمر . وكانت مصر والشام وخراسان والوديان الخضراء حول بخارى وسمرقند تنافس العـراق فى الخصب والانتاج . وكثير من منتجاتها جاء به الفاتحون العـرب الأوائل للهند وآسيا الغربية ، وغدت الامبراطورية تنتج

كل فاكهة وخضر مما نأكله اليوم ، من البرتقال الى قصب السكر ، ومن الزيتون الى البطيخ .

وكان الخليفة هارون الرشيد هو الذى يتربع فوق ذروة هذا الثراء الأكبر والرفاهية البالغة ، والذى كان يحتل فى النفوذ والمكانة منزلة تفوق كل سائر الحكام شرقا وغربا ، باستثناء شارلمان . بل أن شارلمان كان مدركا بما فيه الكفاية لقوة الخليفة الى حد تبادل السفراء معه والتلميح الى عقد تحالف يمكن ان يخدم مصلحتهما المشتركة بتهديد البيزنطيين والأمويين فى اسبانيا ، وهما منافسان على التعاقب له وللعباسيين . ولقد علا شأن هارون لأول مرة وهو فى العشرين من عمره خلال حكم والده محمد ، حينما قام العباسيون بأول هجوم لهم على جيرانهم الروم على أمل استغلال حالة السلم والانسجام السائدة فى الامبراطورية للتخلص من التهديد البيزنطى فى آسيا الصغرى وقد تولى هارون مصحوبا بخالد بن برمك الوفى قيادة طليعة جيش الخليفة ، الذى توغل حتى البسفور . وهناك أجبر الملكة ايرين الوصية على العرش على توقيع معاهدة ودفع الجـــــزية لجيوش الخليفة . وكانت هذه رابع وآخر مرة وقف فيها جيش عربى أمام أسوار القسطنطينية .

واذ عاد هارون بغنائم هائلة واســـتقبل استقبال الأبطال ، كافاه والده المشغوف به بلقب « الرشيد » . ويبدو ان الافراط فى التدليل بعد هذا النجاح قد لعب برأس هارون ، فانه طلب الى أخيه الأكبر موسى ان يتخلى عن حقه فى ولايته الخلافة . فأبى موسى ، وعندما توفى محمد عقب ذلك مباشرة وافق هارون على عدم الالحاح فى مطلبه . ولكن أمهما ، وهى جارية فارسية ســـابقة

كان محمد قد اعتقها وتزوجها لكي يسبغ الشرعية على ولديه ، كانت أكثر طموحا لولدها المفضل هارون مما كان هو لنفسه . وعندما استجاب موسى لانكار الذات من جانب أخيه بتعيين ولده خلفا له ، وضعت الأم حدا للخلاف بتسميم موسى ، ولم يجد هارون الذى لم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره صعوبة تذكر فى اقناع ابن موسى بالتنازل عن الخلافة ، وفى عام ٧٨٦ بدأ حكم أشهر خليفة فى الاسلام .

وكلما أمعن المرء فى دراسة حياة وخلق هارون الرشيد، كلما بدا أنه استأثر من المؤرخين المحدثين بتأثير مقنطيسى . وليس من شك فى انه كان حاكما قديرا ، وان كان قاسيا وغيورا . بيد أنه لم يكن بأى حال فذا . فبفضل تفانى أبى جعفر وجهوده الدائبة ، ورث هارون امبراطورية يسودها السلم ، ولها مقومات ثقافية وأدبية أصبحت الآن مناط الحسد من الشرق والغرب ، وقد تقلد مكان القمة فى هذا الميراث بما يقتضيه من أبهة وزهو . لكن من العسير أن يجد المرء أى شىء فعله لاثراء امبراطوريته أو توطيد مقوماتها . فان ممتلكات الخلافة عند وفاته كانت أقل منها عند ولايته . وقد كان لحملاته التالية ضد البيزنطيون تأثير عكسى ، وتحطم السلم والانسجام اللذان ورثهما بسلسلة من الثورات الدموية خلال الشطر الأخير من حكمه . وكانت علاقاته الشخصية تفشاها فى أحيان كثيرة الغيرة والشكوك التافهة حيال أوثق أصدقائه ، وحتى أسرته .

أما معاملته لأسرة البرامكة الذين كانوا مثال الخدام الاوفياء الأمناء لثلاثة أجيال من الخلفاء ، فلا يمكن وصفها الا بأنها كانت لونا من جنون العظمة . كان وزيره هو

يحيى ، ابن خالد البرمكي وزير أبي جعفر المخلص ، ذلك
دن هارون حذا حذو جده في الاعتماد على الفرس بصفة
عامه وعلى اسره البرامكه بصفه خاصه في تصريف شئون
حكومته . ولم يسبق أن تهيأ لأحد من الخلفاء نصير أوفى
من ابن خالد الذي قاوم بعناد وصلابة خطة موسى في
تعيين ابنه في مكان هارون حتى لقد زج به في السجن جزاء
هذا التحدي . كما ان دين الخليفة للبرامكة لم ينته عند
هذا الحد ، فان واحدا من ابناء يحيى ، وهو الفضل ،
كان معوانا في قمع محاولة للعلويين للاستيلاء على طبرستان
وانتزاعها من الامبراطورية . وهنالك ابن آخر ليحيى ،
وهو جعفر ، وكان شابا موفور الوسامة قد أصبح صديقا
حميما لهارون حتى كان الخليفة وجعفر لا يكادان يفترقان
وعندما تقدمت السن بيحيى حتى ناء بالوزارة ، لم يكن
مثارا للدهشة أن يعين هارون جعفر في هذا المنصب .

ولقد بلغ من تعلق هارون بصفيه جعفر ومبالغته في
تكريمه والاغداق عليه ان زوجة أخته العباسة .

ولكن هذه الصلات الوثيقة لم تشفع للبرامكة عندما
اشتد جنون العظمة بهارون وطفت عليه الشكوك والغيرة .
فبعد سنوات لم يطل أمدها انقلب على صفيه جعفر فاطاح
برقبته تحت سيف الجلاد ، ومن قبله أخته العباسة
زوجة جعفر ، وفي سورة جنون تملكته أقسم أن يهلك
أسرة البرامكة جميعا . فزج بيحيى الشيخ وابنه الفضل
في السجن وصادر ممتلكاتهما . وقد مات كلاهما في
السجن ، وبموتهما انقرض كل اثر لأسرة البرامكة التي
كانت مثال التفاني في خدمة أسرة العباسيين .

ولقد قيل ان التندم استحوذ على هارون حتى لقد
امضى الأعوام الستة الأخيرة من حكمه وهو يحكم

الامبراطورية من قصره الصيفى ، حيث عاش فى غمرات الذهول والتعاسة . بيد ان التندم لم يكبه من شانه ان يرقق من طبعه . فقد استحال فى العزلة التى فرضها على نفسه الى انسان أشد قسوة ، حتى ان المحيطين به ، وفي عدادهم ولداه ، أخذوا يتآمرون عليه .

ولقد ووجه فى أخريات عهده بثورة خطـــيرة فى ولاية خراسان . فقام على راس جيش كبير فى عام ٨٠٨ رغم اصابته بالسرطان لمحـــاربة المتمردين الذين كانوا بقيادة رافع ابن الليثى حفيد نصر بن سيار آخر الولاة الامويين على خراسان . وكان رافع الذى سجن لاتهامه بالخروج على تعاليم الاسلام لزواجه من سيدة سعت الى الطلاق من زوجها السابق بتخليها عن الديانة الاسلامية ـ قـد فر من سجنه ورفع لواء الثورة . كان ذلك اكثر مما يحتمله هارون ، بعد أن منيت الامبراطورية بخسائر جسيمة فى أفريقية وآسيا الصـــغرى . ففى عهد والده انفصلت المغرب عن الخلافة تحت زعامة ادريس أحد الباقين على قيد الحياة بعد ثورة ابراهيم فى البصرة عام ٧٦٢ . وفى عهد هارون أعلن الحكام المحليون فى القيروان استقلالهم أيضا ، وفى آخر المطاف تمكن الأمبراطور البيزنطي ـ من طرد الجيوش العربية الى خارج الأناضول ، فكان فقدان جزء من الأمبراطورية الشرقية أكثر مما يطيقه هارون .

ولقد تمكن هارون من القضاء على ثورة رافع واسره . وفى هذا الوقت كان هارون يقضى نحبه ، بيد انه امر على أن يجاء اليه بالاسير للاقتصاص منه . واذ هو راقد فى مضربه وحياته تتسرب ببطء ، استسلم لعملية شيطانية

اخيرا ، فقال لرافع : « سوف تقتل كما لم يقتل احد من قبلك » . وجرى تمزيق رافع وبتر اجزاء جسمه جزءا جزءا ، والقائها واحد تلو الآخر تحت قدمى الخليفة ، ولم تمض ساعات معدودة حتى لفظ هارون أيضا أنفاسه، وكان فى الامبراطورية كثيرون ، منهم أولئك الذين كانوا ألصق من غيرهم بالعرش ، تنفسوا الصعداء لرحيله .

الفصل الحادى عشر :

العصر الذهبى للعباسيين

ان اية آمال فى ان ذهاب هذا الطاغية الغيور يمكن ان تحل عهدا جديدا من السلام سرعان ما تبددت بعنف . ففى غضون ثلاثة أعوام تمزقت الخلافة بصراع مرير دموى بين ابنى هارون : محمد الامين : وعبد الله المامون .

لقد خلف الأمين اباه لسبب وحيد هو انه كان وحده دون ابناء هارون الاحد عشر من زوجة شرعية . اما الباقون فقد انجبهم من الجوارى ، وكانت ام المامون واحدة من عشر جاريات اهدتهن اليه زوجة زبيده لابعاده عن مفبة افتتن بها الخليفة . وكان الامين موفور القوة الجسدية فارع العود ضخم الهامة ، حتى قيل انه قتل أسدا بخنجره عندما أفلت من عقاله وهجم عليه وهو يحتسى الخمر .

ولكن قوة الأمين الجسدية لم تناظرها حصافة ونباهة فى فن الحكم ، ويبدو أنه ورث عن أبيه أيضا طبعه المتشكك . وكان بصفة خاصة يرتاب فى اخيه المامون الذى كان قد عين قبل وفاة هارون عام ٨٠٩ واليا على خراسان . وقد اكد الأمين هذا التعيين لابقائه بصفة خاصة بعيدا عن العاصمة . بيد انه حتى على هذا البعد لم يشعر بالأمان التام ، فامر المامون باعادة جيشه الى

العراق . فرفض المامون ان يترك نفسه اعزل ، وخامرته الشكوك بدوره فى ان الامين يهدف الى سلبه نصيبه من وصية أبيهما ، وقد اتجه الى الخرسانيين لكى يشدوا أزره ، ولما كانت أمه فارسية فان ذلك كان مزية لصالحه عندما عزله الأمين من منصبه ثم أرسل جيشا من اربعين ألف رجل للقضاء عليه وعلى مؤيديه . وقد أبيدت حملة الامين عند الرى قرب طهران على ايدى قوة من الخرسانيين تناهز عشر عددها تحت قيادة طاهر بن حسين قائد المامون ونصيره الرئيسى .

كان الدم يغلى الآن فى عروق المامون . لقد طلب اخوه الحرب ، ولسوف يعطيه ما طلب . وفضلا عن هذا فانه اذا لم يقض على الأمين فسوف يقضى عليه هو نفسه . وهكذا أمر طاهرا بالزحف الى بغداد مصحوبا بجيش آخر تحت قيادة هرثمة ، القائد العباسى السابق فى شمال افريقية .

والواقع ان الولاء كان شيئا نادرا فى بغداد فى تلك الأيام ، فعندما وصل جنود طاهر أمام العاصمة فى عام ١٨١٢ ، رحبت العراق كلها من البصرة الى الموصل بالمامون ونادت به خليفة ، وبدأ جنود الأمين يهجرونه الى جانب الغزاة . وبعد حصار شديد ومعارك طاحنة دامت اربعة عشر شهرا رهيبة ودمر فيها طاهر وهرثمة أسوار العاصمة ، كانت المدينة ذاتها خرائب وانقاضا عندما سقطت فى أيدى المهاجمين ، وقد قتل الخليفة بأيدى رجال طاهر وحز رأسه وأرسل الى المامون .

وهكذا بدأ حكم المامون وهو ازهى عصر فى تاريخ العباسيين وبغداد قد دمرت تدميرا ونصف سكانها قد هلكوا . وخزانة الخلافة قد أقفرت . والواقع ان هذا

الدمار الشامل في العاصمة جعل ادارة دفة الحكم من بغداد أمرا مستبعدا ، وكذلك عاد المامون غير آسف الى خراسان الصديقة ، حيث باشر الخلافة من مدينة مرو .

لكن اتخاذ مرو مقـــرا دائما للخلافة واعتبار العراق والشام مجرد ولايات نائية كان أكثر مما يطاق . ولا غرابة اذا بدأ الشـــاميون الآن في اظهار الذات . فانهم رغم الخنوع الذي ظل طابعهم طوال الستين عاما الماضية ، لم ينسوا بعد المذابح الفظيعة التي ارتكبتها ضدهم جحافل أبي مسلم . ثم أن القبائل حين رات الخلافة تنزلق اكثر واكثر تحت سيطرة الفرس ، ما لبثت ان انحازت الى التمرد .

ومن ناحية اخرى فان اختيار المامون خراسان مقرا لحكمه كان من شانه ايضا أن يعرضه للوقوع تحت تاثير مجوسي سابق دخل الاسلام هو الفضـــل بن سهل . وكان الفضل قد بقي ليحكم خراسان عندما خرج المامون لقتال اخيه ، وقد استطاع ان يؤلف بين السكان الفرس والاتراك ويجعل منهم مجموعة متجانسة . ومكافاة له على جهوده جعله الخليفة وزيرا عند عودته الى مرو ، وعين أخوه حسن واليا على بغداد . ولكن الفضل كان يضمر عداء دفينا للعرب ، وعندما أخذ في وضع حكام من الفرس والاتراك للأقاليم التي تشمل مستوطنين من العرب منكرا عليهم كل حكم ذاتي ، فقد ابدى للعرب بكل جلاء كيف ينوي أن يجعل الخليفة يتصرف على هذا النحو في الأجزاء الأخرى للامبراطورية . وفضلا عن ذلك فقد كان شديد الغيرة من قائدي الخليفة طاهر وهرثمة ، وقد أقنع المأمون في أول فرصـــة بابعـــــادهما عن خراسان . فاوفد طاهر الى الشام لمعالجة قلاقل القبائل

فيها ، وعين هرثمة واليا على شبه الجزيرة العربية . وقد قبل طاهر هذا التكليف دون تذمر واتجه الى الشام وفى عينيه بريق القتال ولكن هرثمة ذهب الى الخليفة قبل رحيله وحذره من ان الامبراطورية كلها الى الغرب من جبال زاجروس سوف تفلت من قبضته ما لم يعد سريعا الى العراق . ولكن الفضل كانت له الكلمة الاخيرة لدى الخليفة ، فقد اعتقل هرثمة وزج به فى السجن حيث توفى بعد فترة قصيرة ، ولعله لقى مصرعه بفضل الوزير الرهيب .

ولكن هذا النذير ما لبث ان تحقق سراعا . ففى عام ٨١٦ أجبر حسن على الانسحاب من بغداد . فقد شهدت العاصمة وما حولها السلاح ضد مستشارى المأمون الفرس كما تنبأ هرثمة . وظل العراقيون مدى عدة أشهر فى حالة فوضى ، الى أن أرسل اليهم فى النهاية عم للخليفة من خراسان لاقرار الهدوء باعلان العفو عن المتمردين .

لكن الخليفة لم يعدل عن سياسته فى ايثار الفرس على العرب . ففى العام التالى عين وريثا للعرش هو على ابن موسى أحد أئمة الشيعة ومن نسل الخليفة على . وفى نفس الوقت أمر بأن يغير اللباس الرسمى فى سائر انحاء الأمبراطورية من اللون الأسود وهو الشعار العباسى الى لون الشيعة الأخضر . ولكى يظهر احتقاره للرأى العام السنى فقد سمى وريثه (على الرضا) . بل انه فتن بشخصية على الرضا حتى ظل حينا وهو لا يفترق عنه ، وزوجه ابنته مبالغة فى تكريمه .

ولقد كان التأثير المباشر لتعيين وريث للخلافة من الاقلية الشيعية دون الاغلبية السنية هو اثارة الهياج فى

بغداد ، حيث دفع سكان العاصمة المأمون بالزندقة ، ونادوا بخلعه ايثارا لعمه ابراهيم .

واخيرا استيقظ المأمون على الخطر البالغ على وضعه ، والحاجة الى عمل جاهد مستميت لاسترداد عرشه . ومن الغريب ان عليا الرضا هو الذى وجه صديقه ومولاه التوجيه السديد . فبناء على مشورة على ما لبث المأمون ان طرد الفضل ورتب أن يذهب الى بغداد بنفسه وأمر باعادة طاهر من الشام ليكون واليا على الامبراطورية الشرقية . ولما كان المأمون قد تفطن الآن الى مثالب وزيره فقد اشتد غضبه عليه ، وتكفلت عصبة من الحاقدين على الفضل بتخليص الخليفة الى الأبد من مستشار السوء . ولم تمض فترة حتى وجد الوزير مقتولا فى حمامه . ولكن فى حين ان المأمون قد انكر تآمره فى الحادث ، فقد بدا انه لم يساوره شىء من وخز الضمير .

ولقد كان شعور المأمون مختلفا تماما عندما مرض صديقه الحميم على وهما فى الطريق الى بغداد ثم توفى . ويقول البعض انه مات مسموما ، بل هناك من يتهمون المأمون بانه ازاحه من الطريق . وصحيح ان الامام الشيعى لم يكن بالرفيق الملائم لكى يصحب الخليفة فى رحلته لاستعادة العرش ، ومع ذلك فلابد من تبرئة المأمون من اى غدر بدر منه حيال صديقه ، منذ ان حزن حزنا شديدا لوفاته ، وأمر على الأثر ببناء ضريح كبير تخليدا لذكرى شاب ورع كان لديه بمثابة الاخ منذ أن قدم لاول مرة من خراسان . ولقد سمى مقر هذا الضريح الذى ضم رفات على الرضا وهارون الرشيد باسم « مشهد » ، وهو يمثل عند الفرس الشيعيين ثانى أقدس مكان فى

العالم بعد كربلاء ، المكان الذى استشهد فيه الحسين .

ولقد كان المأمون الى أن تحدث ثورة بغداد وضعه الشخصي يبدو قليل الاهتمام بشئون الحكم فيما لا يتجاوز خراسان . بيد انه أصبح منذ الآن رجلا يتملكه انبعاث جديد وعزم وليد . فبعد أن أدار ظهره لرجال خراسان وبدا ارتياح العراقيين لوفاة علي الرضا ، بادر بالقضاء على أى عائق يحول بينه وبين بغداد . فعفا عن عمه ابراهيم واصدر عفوا عاما عن أهل المدينة الثائرة . وعمل المأمون بمشورة طاهر فغير اللباس الرسمى الى السواد من جديد ، حتى بدا الآن اقرب الى تعويض العراقيين عن تجاهله لهم طوال الأعوام الستة الماضية . وقد توج عودته بذلك اللون من الحفلات الباذخة التى يشغف بها اهل بغداد ، عندما توج ابنة الوالى المخلوع حسن بين مشاهد باهرة من الأبهة والترف ، فقد أمطرت العروس بألف من اللآلىء والف من اليواقيت من صحاف ذهبية وهى جالسة مع زوجها فوق بساط ذهبى مرصع باللؤلؤ والياقوت الأزرق ، فضلا عن الهدايا السنية التى اتحف بها المدعوون ، والمال الذى كان ينهال عليهم بغير حساب .

وبعد أن تحول المأمون من متفرج على الاحداث الى صانع لها ، شرع الآن فى تحويل العاصمة العباسية الى مركز للثقافة والعلم لا يضارعه شىء فى عصره . وقد أصبح بفضل شغفه الشديد بالفنون والعلوم اعظم الخلفاء رعاية للشعر وعلوم الدين والفلسفة والتنجيم والفلك . وكان يشجع ويستقدم رجال العلم والمعرفة دون نظر الى الجنس أو الدين : من مسيحيين ويهود ويونانيين ومجوس . وغدا نهر الثقافة الذى تدفق من قبل فى

اليونان من منابعه القديمة فى مصر وبابل وفينيقية ـ غدا يتدفق الآن من جديد فى منابعه الأصيلة لكى يعيد اليها الخصب مرة أخرى .

وفى هذا السبيل انشئت أكاديميات للتعليم العالى ، ومدرسة للقانون ، وقاعة للعلوم مزودة بمكتبة ومعمل ، وكليات ترصد لها الاعتمادات المالية من الدولة . وقد بذل جهد ضخم للارتفاع بالمكانة الادبية للخلافة . واعدت بحوث كثيرة عن اعمال الفلاسفة والرياضيين اليونانيين وعن الأعمال الأدبية والتاريخية الفارسية . وقد نقلت هذه المؤلفات وغيرها من الكتب الفارسية والسنسكريتية الى العربية على أيدى هيئة من المترجمين الذين اعدت لهم الاقامة فى « دار الحكمة » ، وهى مزيج من مكتبة واكاديمية ومكتب للترجمة ، وعهد بالاشراف عليها الى « شيخ المترجمين » وهو عربى مسيحى يدعى حنين بن اسحاق ، وقد تولى شخصيا ترجمة « جمهورية » افلاطون وكتاب « المقولات » و « الطبيعة » لأرسطو ، ومؤلفات اقيلدس ، وتعد عن ترجمته لهذه المؤلفات مثل وزنها ذهبا .

وفى مجال الأدب العربى شجع الشعراء والمؤرخين وعلماء الدين على تاليف مجلدات مستفيضة ومتعمقة . واكتسب النثر العربى الذى كان يمتاز اصلا باحكام السبك ودقة الأسلوب طابع الجزالة الفارسية والتنميق الذى لازمه منذ ذلك العهد .

لقد كان هذا هو عصر الاسلام الذهبى ، لا فى مجال الحياة المرفهة فحسب ، ولكن كذلك فى التفوق الثقافى والاسهام فيه بالانجازات الكبرى ، والذى تهيأ فيه للعالم الاسلامى أن يؤثر أعظم التـاثير فى الفكر الغربى آدابه

وعلومه ، وان يجعل هذا التأثير باقيا ممتدا ، فقد كان الفلاسفة والأطباء والكيميائيون والفلكيون والرياضيون والجغرافيون من العباسيين في المشرق ومن العرب في اسبانيا هم الذين طوروا التراث الفلسفي والعلمي للبلاد القديمة في اليونان ومصر وفارس والهند ، ونسقوا بينه وبين المعتقدات الدينية لعالم يؤمن بإله واحد . وبهذا أوجدوا الترابط الجوهري بين تعاليم ارسطوا وجالين واقيلدس وأفلاطون وتفكير الأوربيين المحدثين .

ولقد كان أعظم هؤلاء المنسقين ومن أكثر الفلاسفة تنوعا الذين ازدهروا في عصر العباسيين الذهبي هو أبو علي الحسين بن سينا . كان فارسيا من أهل بخارى ، وقد اكتسب لنفسه لقب « شيخ المتعلمين » لغزارة علمه . لقد بدأ سيرته في الحياة عند نهاية القرن العاشر بشفاء سلطان بخارى ، الذي منح هذا الطبيب الشاب ، عرفانا بخدمته ، حرية استخدام مكتبته الزاخرة بالمصنفات . وقد تهيأ لابن سينا وهو في الحادية والعشرين أن يقرأ كل كتاب ضمته مكتبة راعية ، ثم أنشأ يدبج مؤلفاته هو ، وقبل وفاته في أخريات الخمسين من عمره كان قد أتم تأليف قرابة مائة كتاب ، سجلت دائرة كبيرة من شتى موضوعات كالفلسفة ، والفن ، والشعر ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وعلوم الدين . وكان من مؤلفاته سيل لا يكاد ينقطع من دوائر المعارف في الفلسفة والعلوم ، تأثر فيها بأفلاطون وارسطو . وعمل على تقنين الفكر والأبحاث الطبية لليونانيين والعرب ، وتطوير نظريات جديدة لعلاج العديد من الأمراض المعدية . وكما حدث لمؤلفات جابر والرازى ، فقد ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية ، وقد ظلت حتى القرن السابع عشر وهي لا تزال المرشد والموجه الرئيسي لعلماء الطب في الغرب . واما عن

اسهامه فى خدمة العالم العربى والفـــارسى فى عصر العباسيين ، فيمكن أن يقال بحق انه أسدى أكثر من اى فيلسوف أو مؤرخ آخر كثير فى ترجمة علوم ومعارف اليونان وتقديمها الى العالم الاسلامى . والواقع ان أعمال ابن سينا قد شكلت القنطرة الأساسية فى الجسر الذى بناه المسلمون بين ثقافات اليونان القـــديمة واوربا الحديثة .

واذا كان ابن سيناء أعظم الفلاسفة الذين عاونوا فى التنسيق والمواءمة بين ارسطو وافلاطون وبين الاسلام ، فانه لم يكن الوحيد فى هذا المضمار ، اذ سبقه الى ذلك بقرن من الزمان يعقوب بن اسحق الكندى الذى ولد من أصل عربى صرف فى الكوفة والذى اثبت ، مثل ابن سينا انه فيلسوف . فبفضل تنقيبه فى علوم الفلك والهندسة والكيمياء وطب العيون والموسيقى ، استطاع ان يؤلف اكثر من مائتى وخمسين كتابا ترجم الـكثير منهـا الى اللاتينية . وكان لنظـــرياته الهندسية المؤسسة على القواعد الرياضية اليونانية تأثيرها لدى روجر بيكون ، كما كان لمؤلفاته فى الموسيقى ، التى تأثر فيها أيضا بما كان عند اليونانيين ، الريادة فى هذا المضمار الجديد . وكان من بين معاصريه القريبين محمد بن طرخان الفارابى من بلاد ما وراء النهر ، الذى عمـــل على تطوير النظريات السياسية والفلسفية لافلاطون وارسطو وتطبيقها فى الحياة العربية . وكان الفارابى ذا تنوع مثل الكندى ، فالف كتبا فى الطب والموسيقى والرياضيات . كما كان عازفا بارعا على العود ، حتى قيل انه كان فى قدرته التأثير فى نفوس المستمعين الى حد استثارة دموعهم او ضحكاتهم أو هدهدتهم للنوم .

وقد امتازت خلافة المأمون أعظم امتياز ايضا بالتقدم فى الرياضيات . والواقع ان أبرز وأبقى اسهام للعرب في تنوير وتعليم الغرب انما كان ادخال الأعداد العربية الذى كان الفضل فيه لمحمد بن موسى الخوارزمى أعظم الرياضيين المعاصرين عندئذ والعالم الفلكى المبرز . لقد ولد الخوارزمى كما يدل اسمه فى خوارزم فى وادى بلاد النهر عام ٧٨٠ ، وكان حجة فى وضع اقدم المؤلفات المعروفة فى الحساب والجبر . ولقد استخدمت هذه المؤلفات فى أوربا ككتب مدرسية نموذجية فى هذا المضمار حتى القرن السادس عشر ، ومن خلالها تلقت أوربا كلا من نظام الإعداد العربية ــ المأخوذة أصلا من القواعد الحسابية فى الهند ــ وعلم الجبر . ولولا هذا النظام العربى لكان من المحال أن تستمر أوربا فى اتباع نظام الأعداد الرومانى العسير . وكان عمر الخيام الذى تقوم شهرته على الشعر وكان مع ذلك من علماء الرياضيات والفلك المقتدرين ، من بين أولئك الذين تأثروا بالخوارزمى .

وقد تقدم علم الفلك خطوات بالغة الأهمية فى القرن التاسع تحت رعاية العباسيين ، ومثله فى ذلك علم الجغرافيا . ومما هو جدير بالتنويه انه قد اجريت حسابات دقيقة لحجم ومحيط الأرض ، التى أصر علماء الفلك العرب على أنها كروية . وقد ترجمت هذه المؤلفات العربية وغيرها فيما بعد الى اللاتينية .

ويرجع الفضل فى تقدم علم الجغرافيا الى الاهتمام بالبلاد الأجنبية الذى اثارة التجار والملاحون العرب ، والى الاتساع الشاسع الذى بلغته الامبراطورية العربية ذاتها . وقد تولى الكندى وغيره ترجمة مؤلفات بطليموس

لما كان عليها من اقبال كبير . واستخدم الخوارزمي هذه المادة في ابحاث الخاصة ، وتولى بدوره تاليف مصنف جغرافي من امداده الخاص هو « شكل الارض » ، الذي اخذ كاساس لابحاث اخرى . وبمضي الوقت تقدمت الجغرافيا التفصيلية ، وبحلول القرن الثالث عشر كان للعباسيين ان يباهوا بواحد من اكبر علماء الجغرافيا في كل العصور ـ ياقوت بن عبد الله الحموى ، وهو يوناني بدأ حياته كعبد في الشام ، وأصبح قاموسه الجغرافي الذي أتمه عام ١٢٢٨ واحدا من أعظم الموسوعات في كل العصور . لقد فتح ياقوت آفاقا جديدة بمؤلفه ذلك الذي لم يشتمل فقط على كافة المعرفة الجغرافية القائمة ، ولكنه اضاف معلومات جديدة عن الأصول التاريخية والعرقية للأقطار التي شملها .

ولقد قدر للخلافة العباسية أيضا أن تحقق تقدما رائعا في علم تدوين التاريخ . كانت البداية في القرن التاسع على يد جعفر الطبري ، واستمر بعدها موكب طويل من المؤرخين المسلمين على مدار سبعمائة عام حتى الغزو العثماني في القرن السادس عشر ، ولقد ولد الطبري الذي يعد أعظم هؤلاء المؤرخين جميعا عام ٨٣٨ في طبرستان جنوبي بحر قزوين . واليه يرجع الفضل في تاليف اول تاريخ عالمي باللغة العربية ، وهو كتابه المشهور (تاريخ الرسل والملوك) الذي بدأ بخلق الكون واستطرد حتى عام ٩١٥ . كان الطبري غزير المادة مثال التفاني في العمل ، وقيل انه كان يكتب اربعين صفحة كل يوم على مدار الاربعين عاما التي استغرقها في اتمام ذلك العمل الضخم ، وانه باع اكمام قميصه لشراء طعام لاسفاره بحثا عن المادة في مصادرها ، وهي

اسفار حملته الى اقاصى الأركان فى العـــــراق وفارس والشام ومصر .

وتلاه فى الترتيب التاريخى ابو الحسن المسعودى ، من ابناء بغداد ، وقد سمى (هيرودت العرب) . وقد نقب المسعودى بكتابه المعــروف باسم « مروج الذهب ومعادن الجوهر » فى تواريخ المسلمون واليهود والرومان والهنود ، وأكد دعوى مثيرة تقول بانه عند بدء الخليقة كان البحر أرضا وكانت الأرض بحرا . كما نهج المسعودى نهجا جديدا فى أسلوب تدوين السير ، فبدلا من تسجيل الاحداث وفقا لترتيبها وتسلسلها ، كما فعل الطبرى ، عمد الى تجميعها ووصلها بالاسر الحاكمة والشخصيات .

وبعد قرنين جاء عز الدين بن الأثير ، الذى تولى فى كتابه « الكامل فى التاريخ » تلخيص وتركيز المؤلف التاريخى الـكبير لابن الطبرى ، ثم زاد عليه لـكى يغطى فتـرة الحروب الصليبية . وفى القرن الثالث عشر كان احمد ابن محمد بن خلقان ، من نسل يحيى البرمكى وزير هارون الرشـــــيد ، أول مسلم يصنف قاموسا فى السير والشخصيات القومية . وجاء فى أعقاب ابن خلقـان ، بعد سقوط الخـــلافة العباسية ، أبو الفدا ، سليل صلاح الدين ، الذى تولى بدوره تلخيص تاريخ ابن الأثير وتابع الوقـــائع الى تاريخ وفاته فى عام ١٣٣٢ . ومن المصادفات ان هذا العام نفسه قد شهد فى تونس مولد آخر اكابر المؤرخين العرب ، عبد الرحمن بن خلدون .

انحدر ابن خلدون من أسرة عربية فى اسبانيا كانت قد هاجرت من اليمن فى القرن التاسـع . وقد بدأ حياته موظفا فى الحكومة فى عهد سلطان غرناطة عام ١٣٦١ ، بعد انقضاء نيف وثلاثمائة عام على زوال الخـلافة الأموية

فى اسبانيا . ولكن نظرا لما اثارته صداقته للسلطان من حسد وزيره القوى المفرض ، انسحب ابن خلدون الى الجزائر حيث بدأ اعداد مؤلف عن تاريخ الفلسفة عند العرب والفرس والبربر ، فى مدونة من ثلاثة أجزاء ، اشتهر الجزء الأول منها باسم « مقدمة ابن خلدون » . وقد نهج ابن خلدون فى هذا المصنف الكبير نهجا جديدا تماما باصطناع دراسة اجتماعية للتطورات والوقائع التاريخية تربط بين العوامل المؤثرة كالمناخ والجغرافيا وكذلك الأحوال الدينية والسياسية ، وبين السلوك وتفاعل الأحداث عند العرب وما كان يطرأ على امبراطوريتهم من ازدهار وانحدار .

وكان ابن خلدون ، مثل الطبرى ، يحب الأسفار والترحال ، وفى عام ١٣٨٢ حمله السعى وراء مواد لعمله الضخم الى السفر الى مصر ، حيث أصبح لأول عهده بها محاضرا فى الأزهر ، ثم عين كبيرا للقضاة فى القاهرة فى عهد أحد سلاطين المماليك. وبعد سنوات قلائل صحب جيش المماليك الى الشام لمحاربة المغول ، ويقال ان تيمور لنك زعيم المغول استقبله كمبعوث للمماليك . وتعد هذه المغامرة الفريدة بالنسبة لابن خلدون تجربة أخرى فى العلاقات الانسانية لتأكيد دراساته الاجتماعية الكبرى ، التى ظلت حتى اليوم منقطعة النظير كمرشد فلسفى وكمادة وثيقة عن طبيعة واخلاق ومزاج الامة العربية .

تلك ، ومثلها كثير ، هى المعالم البارزة فى عصر التنوير والمعرفة الاسلامى ، الذى بدأ فى أوائل عهد الخلافة العباسية وكان مبعث الهام للثورة العلمية فى أوربا فى القرن السابع عشر . ولم يسبق لحاكم عربى أن عمل

على تشجيع وتقدم الرقى الثقـــافي مثلما عمل الخليفة المامون . وعندما توفى وهو فى الثامنة والأربعين بالتيفويد كانت البلاد تنعم بالأمن والرخاء . وقد يذكر الناس هارون الرشيد مقرونا بتألق وأبهة الف ليلة وليلة ، ولكن عصر التفوق والسيادة العباسى قد استهل أبو جعفر ، ثم نضج واينع فى عهد المأمون ، حتى لقد أضحت عاصمة الخلافة أعظم مركز للثقافة والعلم والترف فى العالم فى وقت كان فيه قادة أوربا لا يستطيعون حتى كتابة أسمائهم . ومن المؤسى أنه فى غضون أقل من ســـبعين عاما بعد وفاة المأمون ، وصل تفوق العباسيين السياسى الى منتهاه ، وسارت الخلافة مرة أخرى فى طريق التدهور .

القسم الثالث

التفكك والأفول

الفصل الثاني عشر :

إنفصال مصـــــر عن الخلافة

كان من بين الاخطاء الذريعة التى ارتكبها العباسيون تخفيف قبضتهم على اطراف الامبراطورية . فانهم ، خلافا للامويين ، كانوا اكثر اهتماما بالعمـــل على اثراء وتجميل مركز الخلافة منهم بفرض وتثبيت حكمهم فى كافة ارجائها ، وكان حتما أن تفضى هذه الحـــال الى تشجيع الولايات النائية على خلع نير حكمهم . ثم كان تحدى عبد الرحمن بن معاوية لبغداد حقيقا أن يغرى حكام الولايات الاخرى بانتهاج هذا المسلك .

والواقع انه ما حل عام ٨٠١ حتى حذت تونس حذو اسبانيا بزعامة واليها ابراهيم بن الاغلب . كان قد عينه هارون الرشيد فى العام السابق ، وسرعان ما اقام لنفسه امارة مستقلة فى تونس ، وســـك لنفسه عملة خاصة حرص على أن يرفع منها اسم الخليفة . وعلى مدار المئة عام التالية ظل هو وخلفاؤه من الاغالبة يمارسون الحكم مستقلين عن كل سيادة عليا من عاصمتهم فى القيروان ، حيث اقاموا فى الموقع الاصلى الذى بنى فيه عقبة بن نافع مسجده ــ وهو أول فاتح عربى فى شمال افريقيـــة

ومؤسس القيروان ـ اقاموا المسجد الكبير الذى بقى حتى اليوم اثرا لمن جعلوا من تونس أمة مستقلة وهيـــاوا للقيروان ان تعد فى نظر مسلمى المغرب رابع المدن الاسلامية بعد مكة والمدينة وبيت المقدس . ولقد بلغ من سيطرة وتاثير الأغالبة فى القرن التاسع انهم استطاعوا ازالة كل الآثار الباقية للغة اللاتينية فى شمال افريقية ، وظلت القصيدة الاسلامية فى مدى الألف سنة التـــالية هى السارية .

بل ان الاغالبة لم يقنعوا بما حققوه من تاكيد استقلالهم عن بغداد وازالة التاثير اللاتينى من شمال افريقية ، بل شنوا هجومهم عبر البحر الأبيض المتوسط عندما غزوا فى عام ٨٢٧ جزيرة صقلية التى كانت اذ ذاك احدى ولايات الامبراطورية البيزنطية . لقد كان هذا أول تأكيد ضخم لقوة العرب البحرية ، التى ظلت تتزايد باطراد منذ فتح مصر وما تلاه من القضــــــاء على الاسطول البيزنطى . وقد أدت النجاحات الاخرى التى احرزها العرب مثل الاستيلاء على قبرص وفتح اسبانيا واحتلال جزر البليار ، الى جانب الغارات المتقطعة التى كان يقوم بها القراصنة العرب والبربر على صـــقلية وكورسيكا وسردينيا ـ الى مساعدة العرب فى التغلب على خوفهم من البحر ، وهكذا نزع الاغالبة فى جسارة الى انشــاء اسطول لهم جيد التسليح يتمكنون به من مد رقعـــة ممتلكاتهم الى داخل أوربا . وعنـــدما تلقى الأغالبة فى عام ٨٢٧ نداء من طوائف معينـــة من الثوار فى صقلية لمساعدتهم ضد سيطرة الروم ، استجاب الامير الاغلبى

وأرسل أسطولا من سبعين سفينة وجيشا من عشرة آلاف رجل هبط على الساحل الغربى للجزيرة ، وبحلول عام ٨٣١ سقطت باليرمو ، وسقطت مسينا بعدها باثنى عشر عاما ، وفى حين كان الغزو العربى للجزيرة يمتد ببطء ، قام الأغالبة بالاغارة على سواحل ايطاليا ، فاستولوا على بارى ، وهددوا نابلى وروما ، حتى اضطر البابا الى دفع الجزية مدى عامين . وفى عام ٨٦٩ تم الاستيلاء على مالطة ، وفى عام ٩٠٢ أتم الأغالبة غزو صقلية ، التى اصبحت على امتداد الـ ١٨٩ عاما التالية جزءا من العالم العربى .

ولم تكن هذه اول مرة سمحت فيها اسرة حاكمة من المنشقين الى بسط حدود الامبراطورية العربية فى وقت كانت فيه السلطة المركزية آخذة فى الضعف . ولكن ، فى حين ان الامويين انفصلوا فى وقت كان فيه العباسيون يدخلون عصرهم الذهبى ، فان الأغالبة عندما ابتلعوا صقلية ، كانت الخلافة ذاتها قد بدات تتفسخ من الداخل . ومن المفارقات ان السبب فى هذا الانهيار الداخلى كان هو نفس العامل الذى أسهم باكبر قدر فى قيام العصر العباسى الذهبى ، الا وهو غلبة التأثير الاجنبى على الفكر والعمل العربى . وحتى فى موضوع توارث الخلافة فان العباسيين لم يعودوا يحرصون على الدم العربى . فان هارون الرشيد والمامون لم يكونا فقط نصف فارسيين ، بل اربعة وثلاثين من الخلفاء السبعة والثلاثين الذين جاءوا بعد أبى العباس ولدوا من امهات من الجوارى الفارسيات او التركيات ، ولم يولد من دماء عربية خالصة سوى أبى العباس وابنه الأمين .

وكان تاثير الروم والفرس هو الغالب فى الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى بغداد ، ولم يعد للتاثير العربى مكان الصدارة . ومع وجود وزراء فارسيين يصرفون شئون الحكومة وولاة من الفرس يحـــكمون الاقاليم ، صبح حرس الخليفة الخـــاص والجيش الامبراطورى مملوءا بالخراسانيين ، وكانت الحملات العسكرية تشكل غالبيتها من الفرس أو الاتراك .

وعندما ولى المعتصم شقيق المامون الخلافة بعده اخذ النفوذ التركى يحل محل النفوذ الفارسي . فقد كانت ام الخليفة الجديد جارية من التركمان فى حريم هارون ، وظل المعتصم طوال حياته وهو يتكلم لغتها ويتبنى عادات جنسها . وبسبب تشككه في الفـرس والعـــرب على السواء ، فقد استبدل بحرسه الخاص من الخراسانيين ضباطا وجنودا من التركمان عرفوا باسم المماليك ، وجاء معظمهم من القوقاز وتركستان وفرغانة وغيرها من انحاء آسيا الوسطى حيث وقعوا هم أو آباؤهم فى الاسر على عهد فتوح الأمويين . ولقد جيء بالالوف منهم كل عام الى العراق ومصر وغيرهما من أقطار الامبراطورية ، ولكونهم لم يدربوا على شيء سوى فن الحرب ، فان هؤلاء المجالدين الاشداء سرعان ما ارتقوا فى صفوف جيش الخليفة .

وقبل نهاية حكم المعتصم عام ٨٤٢ ، استولى الاتراك على قيادة الجيش واصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الخليفة . وقد لعبت هذه القوة برءوسهم حتى لقد اخذ الاحفاد الاترك يتصرفون فى شوارع بغداد تصرفات قطاع الطرق ، فكانوا يعتدون على المارة ويسبونهم لمجرد التلذذ

بالاساءة اليهم واذلالهم . وعندما قصر الخليفة فى توبيخ جنـوده وزجرهم ، تجمعت طوائف المواطنين للدفاع عن انفسهم ، بيد ان المعتصم لم يشـــــــأ أن يعرض اتراكه للازعاج ، فقد سارع ينقل مقر حكومته ، مع أفراد حرسه القساة ، الى السامرا فى أعالى نهر الدجلة ، حيث بنى عاصمة جديدة ، وعاقب ابناء عاصمته المنكودين بحملهم على اداء ضرائب للوفاة بتكاليف العاصمة الجديدة .

ولقد كانت هذه الحركة مشئومة ، كما دل على ذلك تطور الأحداث ، اذ كانت نتيجتها الرئيسية وضع الخليفة كليا تحت رحمة ضباطه الاتراك ، والمزيد من ابعاده عن تأثير الرأى العام . وقد لا يكون هذا محل معارضة من جانب المعتصم ونصفه تركى ، ولكن بالنسبة الى الخلفاء الثمانية الذين تحتم عليهم أن يقيموا فى السامرا من بعده على مدار الثمانية والخمسين عاما التالية ، فان العاصمة الجديدة لم تعد اكثر من سجن يسمح لهم فيه بالوجود والبقاء طالما أطاعوا سجانيهم الاتراك . وقد فقدوا بحلول النصف الأخير للقرن كل سيطرة على الخلافة . واصبح رجال الحرس الأتراك هم السلطة الحاكمة العليا ، ينصبون أو يعزلون الخلفاء طبقا لاهـوائهم ونزواتهم ، ويقتلون أو يسملون اعين كل من يرفض تنفيذ اوامرهم او يحـاول الافلات من قبضتهم .

لكن اذا كان الاتراك قد اســــــتطاعوا السيطرة على الخلفاء فى السامرا ، فانهم كانو أقل نجاحا فيما يتعلق بالولايات . فقد حدثت بعد وفـاة المعتصم سـلسلة من الثورات هزت الامبراطورية من قواعـدها فى فلســطين

وشبه الجزيرة العربية ومصر وفارس وارمينية ، بل حتى تحت انوفهم فى العراق . فان الولايات لم تشاطر الخليفة الراحل تعلقه بالمماليك التركمانيين ، اذ كانوا يعدونهم جنسا اجنبيا من العبيد ينبغى حصرهم فى تكتات الجيش خاضعين للنظام الواجب . وفضلا عن ذلك فان نظام الحكم فى الولايات كان يسمح بقدر من الحكم الذاتى المحلى فى ممتلكات الخلافة النائية ، مما جعل سلطة العاصمة المركزية متراخية . وعندما اصبح الولاة يتوارثون مناصبهم ، فقد اخذوا بالتدريج يحكون انوفهم فى وجه العاصمة ، ولقد بدأ نجاح انفصال الاغالبة فى تونس تسرى عدواه الى مصر ، وانفصل حاكم سجستان فى شرقى فارس عن الخلافة فى عهد المعتز عام ٨٦٩ .

وفى محاولة لوقف هذا التيار الخطر ، ارسل الاتراك واحدا من جنسهم الى مصر ممثلا للخليفة الحاكم الاسمى ، الذى بقى فى السامرا . كان احمد بن طولون هو اسم هذا الابن لعبد مملوك سابق من فرغانة . وكان ابوه قد اهدى الى المامون من والى بخارى ، ونشأ الابن فى بلاط الخليفة لكى يتعلم الجندية . وكان اول ما ظهر ابن طولون فى عام ٨٦٦ ، عندما حاول الخليفة المستعين الفرار من السامرا الى بغداد . ولكى يستدرجه الاتراك من مخبئه عرضوا عليه الانسحاب فى امان الى المدينة ، ولكنه عندما خرج من المخبأ اقتيد الى بيت قاتل ماجور فى واسط حيث قتل . كان ابن طولون هو قاتل الخليفة ، ومكافاة له على الخدمة الدموية التى اداها لسادته ، فقد رقى وارسل الى مصر لتهدئة الاحوال فيها مع قوة كبيرة من الاتراك تحت قيادته .

وبينما كان ابن طولون منهمكا فى هـــذه المهمة حدث انفجار كبير فى العراق ذاته . كان هذا هو ما عرف باسم « ثورة الزنج » أى الزنوج الأحباش الذين كانوا يعملون فى مناجم الملح الصخرى فى دلتا نهر الفرات . وكان قائد هذه الثورة فارسيا خارجا على القانون رغم انه من نسل الخليفة على . وكان السخط فى العراق على الخلافة والمسيطرين عليها من الاتراك قد بلغ مداه حتى حتى استطاع الزنج فى مدى عامين الاستيلاء على البصرة والدلتا كلهـــا . ثم انتشروا فى كافة الاتجاهات حتى استولوا على واسط والبحـــرين ، وغزوا بعد ذلك فارس . ولقد ظل هؤلاء الزنج الأقوياء الذين كانوا يستلهمون مبـــادىء الخوارج مدى أربعة عشر عاما وهم يبثون الخوف فى الخلافة ويهزمون جيشا بعد جيش ويأخذون الألوف من الأسرى رهائن . وفى النهاية دب الانقسام الى صفوفهم وأوهى قوتهم ، فقتل زعيمهم عام ٨٨٣ وقضى على الحركة .

ان الجهود التى بذلت لسحق هذه الثورة ، التى قدر البعض خسائرها فى الأرواح بنصف مليون ، قد ادت الى استنزاف خزائن الخلافة فى السامرا . ولما كان الخليفة القائم فى الحكم وهو المعتمد لم ينس مصير اخيه المعتز الذى خلعه الأتراك لتقصيره فى دفع رواتب الجيش الذى ارسل الى سجستان ، فانه أمر الولايات بتقديم معونات مالية . وقد دفعت كلها ماعدا مصر ، حيث اعتزم ابن طولون الآن أن يستغل ضعف الخلافة لتأسيس مملكة خاصة به . كان هذا التحدى بمثابة نقطة تحول فى علاقة مصر بالبلاد العربية الأخرى . ذلك ان مصر اصبحت

منذ ذلك الحين ، باستثناء عودة قصـــيرة الى السيادة العباسية فى مستهل القرن العاشر ، دولة مستقلا فعلا ، الى ان وضعت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بستمائة سنة نهاية للحكم الذاتى فى العالم العربى .

وكان اول عمل قام به ابن طولون كحاكم مصر المستقل هو تنظيم جيش من مائة الف من الاتراك والعبيد الزنوج اقتضى منهم يمين الولاء له شخصيا . وفيما كانت جيوش الخليفة تضمد جراحها بعد ثورة الزنج ، انتهز فرصة غزو البيزنطيين للشام وعرض ارسال جنود للدفاع عن ممتلكات الخليفة . فقبل العرض ، وخرج ابن طولون من الفسطاط على راس جيشـــه ، تاركا ابنه مشرفا على مصر . وكانت مقاومة الروم ضعيفة ، وتم اخلاء الشام من الغزاة بغير صعوبة . وقد تظاهر ابن طولون بمطاردة العدو المنسحب الى داخل الاراضى البيزنطية ، فزحف للاستيلاء على الموصل . ولكن قبل ان يصل الى هدفه ، جاءته الانباء بأن ابنه ، فى محاولة منه لتحقيق نصر له هو نفسه ، زحف من الفسطاط وهاجم الاغالبة فى تونس . واذ لم تكن لديه قوات كافية فقد منى هذا الفتى بهزيمة نكراء ، وفى الوقت الذى عاد فيه ابن طولون لمعالجة الموقف كان تقهقر الابن شاملا . ولكى يلقنه الأب درسا فقد أمر بجلده وأجبره على أن يأمر بنفسه بتمزيق أوصال من كانوا مسئولين عن تشجيعه على هـذه الحماقة حتى الموت .

وفى خـــلال ذلك استانف جيش ابن طولون الزحف للاستيلاء على الموصل ، فقد عقد هذا الحـــاكم الشاب الطموح الذى اصبح الآن مسيطرا على مصر والشـــام

وشمال العراق ، العزم على أسر الخليفة واحضاره الى مصر . انه لم يقنع بما ظفر به حتى الآن ، وأراد أن يحكم الامبراطورية كلها مستندا الى سلطة الخليفة . وهكذا دعى المعتمد لكى ينضم الى قوات ابن طولون التى تحتل الموصل لكى تبسط حراستها له الى مصر ، حيث يتخذ فيها عاصمته بعيدا عن المشاحنات والاضطرابات فى العراق . وكادت هذه الخطة الجريئة العجيبة أن تنجح فان الخليفة فضل ان يكون تابعا لابن طولون فى الفسطاط على أسره الحالى فى السامرا ، وهكذا قبل دعوة ابن طولون وخرج الى الموصل ، ولكن قبض عليه أخوه الموفق الموالىء للأتراك ، وأعاده عنوة الى محبسه فى قصر السامرا .

وبعد حبوط هذه المحاولة من جانب ابن طولون للاستئثار بالسلطة العليا ، شرع فى تدعيم قبضته على الشام ، التى اصبحت الآن تحكم من وادى النيل لأول مرة منذ العصر الفرعونى . ومن اجل هذه الغاية بنى قاعدة بحرية فى بعكا ، واقام حاميات فى مراكز استراتيجية . كما عمل على تطوير الزراعة وتحسين الرى، مثلما فعل من قبل فى مصر . ولكن حامياته لم تلبث فى السنوات الأخيرة من حكمه أن بدأت فى الخروج عليه منضمة الى الخليفة تحت اغراء الرشوة القوى،وعلىالرغم من بقائه حاكما اسميا للشام حتى وفاته عام ٨٨٤ لأن الخليفة فضل تحاشى المواجهة معه ، فانه لم يعد يستطيع الآن بتاتا الاعتماد على ولاء أهل الشام . وباضطراره الى الانسحاب على هذه الصورة ، ركز اهتمامه على مهام التحسين الاجتماعى والمعمارى فى مصر . فبنى أول

مستشفى فى مصر لعلاج المرضى وقصرا منيفا لنفسه . وقد كسيت جدران القصر بالذهب ، وازدانت بنقوش تصور ابن طولون وزوجاته ومغنياته يلبسون تيجانا من ذهب ، وأقام فى حدائق القصر الفناء قفصا كبيرا للطيور وحديقة حيوان وبركة من الزئبق تطفو فوقها حشايا من الجلد منفوخة بالهواء لكى تهدهد الحاكم وأصحابه فيستسلموا للنوم . واعظم أثر له بالطبع هو مسجد ابن طولون فى القاهرة القديمة ، وقد حاكى فى مئذنته الهرمية المئذنة الأصلية لجامع المعتصم فى السامرا . يحيط بصحن الجامع الرحب من جوانبه الأربعة رواق ضخم ذو أعمدة وافريز نقشت عليه آيات من القرآن .

وقد اراد ابن طولون ، مثل كل فاتح أو مغتصب فى تلك العهود ، أن يؤسس أسرة حاكمة من ذريته . بيد ان نجاحه هنا كان قصير الأجل . فان ابنه خمارويه المغامر الأحمق الذى حاول الاطاحة بالأغالبة أثبت انه خلف تافه ، اذ كان مسرفا متلافا ومعاقرا للخمر بغير حساب حتى باء باللعنة من المسلمين المؤمنين ، وبعد أن جاء ابن آخر وحفيدان اثبتوا انهم ليسوا أحسن حالا ، كان ذلك ايذانا بنهاية الأسرة الطولونية . وفى عام ٩٠٥ عادت مصر لمدة الثلاثين عاما التالية الى سيطرة العباسيين .

وقد علق بعض المؤرخين على فشل التجربة الطولونية بان زعيمها لم تكن له قاعدة وطنية فى الأراضى التى بسط سلطانه عليها ومن ثم كانت قصيرة الأمد . كان الحاكم ذاته دخيلا يضطر الى جلب اجناده من شتى المصادر الاجنبية ، وحكم كهذا لا يمكن استدامته .

والواقع ان هذا التعليل يمكن ان ينطبق بانتظام عجيب على جميع العصبات التركية المتلفة التى ظلت على مدار الثلاثمائة والخمسين عاما التالية تتعاقب كسادة لخلفاء بغداد ، الى ان جاء المغول ومحوا الخلافة وعاصمتها من الوجود .

وكانت النتيجة لا مهرب منها . فقد حلت الفوضى والاعتلال بقيام سلسلة من الأسرات الحاكمة الهزيلة وجماعات الزنادقة فى سائر ارجاء الخلافة واعلنوا استقلالهم . ومنذ ذلك الحين لم تعد الامبراطورية تعمل كوحدة قوة متماسكة . نعم ان قادة فرديين ذوى شهرة عالمية مثل عبد الرحمن الثالث فى اسبانيا وصلاح الدين وبيبرس المملوكى قدر لهم أن يظهروا فيما بعد ويستعيدوا المكانة الضائعة للمملكة العربية ، ولكن الخلافة كانت مؤسسة تلفظ انفاسها .

الفصل الثالث عشر :

صيف مشرق للأمويين في أسبانيا

بحلول منتصف القرن التاسع ، عندما بدأ التفكك في الامبراطورية العباسية ، كانت الوحدة التى أوجدها عبد الرحمن الأول فى الامارة الأموية بأسبانيا تتفكك هى أيضا بسرعة . فبعد أربعة أجيال على وفاة مؤسسها ، بدأت الولايات والمدن الاسبانية تنتفض علي حكم قرطبة. وأول ما بدأ هذا الفساد فى (رية) فى الجنوب وفى (أرغن) فى الشمال ، حيث تحالفت الأسرة الحاكمة القوطية ، رغم تحولها الى الاسلام ، مع ملوك ليون المسيحيين . ثم حذت حذوهم طليطلة القلقة بعد أن أثارتها قبائل البربر. وبعد ذلك انفصلت اشبيلية ، وجليقية ، ومرسية ، والجرف فى البرتغال . ثم جاء مسلم من نسل أحد نبلاء القوط الغربيين هو عمر بن حفصون وألب الثورة في الجنوب ضد الأمير الحاكم وسيطر عليه مدى ثلاثين عاما ضد خلفيه ، فعزل قرطبة عن بقية أسبانيا ، بل سعى وإن لم ينجح الى الاعتراف به واليا على أسبانيا من قبل الخليفة العباسي القائم وقتها في الحكم .

وهكذا بابتداء القرن العاشر أوشك ميراث عبد الرحمن الأول على الضياع ، وانكمشت الامارة الأموية الكبيرة

التى شملت فى وقت ما سبعة أثمان شبه جزيرة ايبريا الى بضعة اميال مربعة من الأراضى حول قرطبة ، ولكن فى عام ٩١٢ جاء شاب فى الثالثة والعشرين من عمره يحمل اسم مؤسسها الأشهر لكى يستعيدها ويرفعها الى اوج قوتها وشهرتها . كان عبد الرحمن الثالث الفارع الوسيم ذو العينين الزرقاوين من ام جارية مسيحية ، وقد خلف جده عبد الله ، وشرع من فوره فى استعادة الولايات الضائعة . فزحف من عاصمة المطوقة واستولى على (استجة) و (البيرة) و (جاين) . وبنهاية عام ٩١٣ كانت عاصمة (رية) تؤدى الجزية ، وفتحت اشبيلية ابوابها للأمير الجديد . وقد ظل ابن حفصون يقاتل بعناد فى الجنوب مدى اربعة سنوات اخرى ، ولكن عندما توفى عام ٩١٧ كان عبد الرحمن في طريقه لاستعادة الولايات المفقودة الى نطاق قرطبة . وبقيت طليطلة التى يسيطر عليها البربر تقاوم وحدها فترة من الزمن ، ولكن بحلول عام ٩٣٢ انتهت مقاومة هذا المركز .

بيد ان متاعب عبد الرحمن لم تنته بعد . ففى افريقية جاءت أسرة علوية جديدة وطردت الاغالبة من القيروان . لقد تسموا باسم الفاطميين زعما بانهم من نسل فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وصمموا على الاطاحة بالبقية الباقية من الأمويين أعدائهم التقليديين واعلنوا الحرب على امارة قرطبة . ولكن وفاة ابن حفصون حرمتهم من عون يعولون عليه كطابور خامس فى أسبانيا ، وأدى بعد نظر عبد الرحمن فى بناء أسطول له الى احباط خططهم فى الغزو عن طريق البحر . وهكذا

توقف الفاطميون عما هموا به ، واستغل الامير الشاب ورطتهم فأخذ المبادرة فى يده وزحف الى افريقية حيث استولى على سبتة واجبر معظم ســـاحل البربر على الولاء له .

ولكن كان لا يزال هناك أوردونو ملك ليون ولا مفر من أن يحسب حسابه . ذلك انه بينما كان عبد الرحمن يواجه التهديد الفاطمي فى الجنوب ، توغل أوردنو كثيرا في الأراضى الاســلامية وأسر قائدا من الامويين وعلق رأسه على سور قلعة عند نهر دورو . فخرج عبدالرحمن الى الميـــــدان فى عام ٩٢٠ وطرد أوردونو الى نافار واستولى على بامبلونة وخربهـــا ، ثم عاد منتصرا الى قرطبة . وعقب ذلك ظل يواصل الضغط على ليون ونافار حتى عام ٩٣٩ ، حينما اتحد الملكان المسيحيان وأوشكت جيوشهما أن تبيد جيشه وكانت هذه الكارثة سببا فى أن يترك الاثنين وشأنهما فى ركنهما من اسبانيا ، فى مقابل معاهدة وقعت فى احتفال مشهود فى قرطبة أعترفت بسيادته فى أرجاء باقى شبه جزيرة أيبريا .

وقبل عشر سنوات من هذا الاحتكاك النهائى مع جيرانه المسيحيين كان عبد الرحمن قد نادى بنفسه خليفة ، لا من قبيل جنون العظمة ، ولكن لأن الخلافة كانت تتهاوى بددا بعد أن أخذت كل من مصر وشمال افريقية والولايات الشرقية تؤكد استقلالها . فى هذه الظروف كانت اسبانيا العربية تعنى بالنسبة للعالم شيئا أكثر من هذه البقية المحطمة للأمبراطورية العربية .

وفضلا عن ذلك فان بلاط قرطبة كان معدودا من أروع

ما شهده التاريخ ، ولم يكن يضارعه في عصره سوى بلاد القسطنطينية . كان فيه مبعوثون معتمـــدون من الأمبراطور البيزنطى ومن بلاطات المانيا وايطاليا وفرنسا . وكان القصر الملكى المطل على الوادي الأخضر الفسيح لنهر الوادى الكبير يضم اربعمائة حجرة بالاضافة الى مساكن لعدة الوف من العبيد وافراد الحرس . وكان تعـداد سكان قرطبة ــ وهو اليوم ۱۸۰ الفا ــ يناهز ثمانمائة الف نسمة . وارتفع عدد المساجد الى سبعمائة . وكان فى المدينة ثلاثمائة من الحمامات العمومية فى وقت كانت فيه الشعوب الاوربية لا تزال تعتبر الاستحمام عادة وثنية . وكانت الشوارع ــ وقوامهـا عشرة أميال ــ ممهـدة ومضاءة ، وهو تقدم كان مقدرا الا تنعم به لندن وباريس قبل سبعمائة عام تالية ، كان المواطنون اثناءها يتحسسون طريقهم ليلا فى الظلام الحالك ويتخبطون فى وحول تغوص فيها الأقدام حتى الكعبين . وكانت المدينة تضم سبعين مكتبة عامة ، وفى عهد الحكم ، ابن عبد الرحمن ، الذى كان مشغوفا بالكتب ، جمعت مجموعة من أربعمائة الف كتاب من المكتبات العامة والخاصة فى الاسكندرية ودمشق وبغداد ، فى حين لم يكن يوجد فى اى مكان فى العالم اكثر من عشرة آلاف كتاب باللغة الانجليزية . وكان حكام ليون ونافار وبرشلونة يرسلون الى قرطبة اذا احتـاجوا الى طبيب أو مهندس معمارى ، لا الى فرنسا او المانيا . وكانت جامعة قرطبة تجتذب الطلاب من أوربا وافريقية وآسيا . وكانت معرفة القراءة والـكتابة عامة ، حتى اكد المؤرخ دينهارت دوزى ان كل فرد تقريبا كان يقرأ

ويكتب ، في حين ان معرفة القراءة والكتابة في اوربا كانت لا تزال ميزة لرجال الدين وقلة من الكتبة المحترفين .

وفي النواحي الصناعية ايضا خطت اسبانيا خطوات واسعة تحت قيادة عبد الرحمن . فقد ازدهر النسيج والمصنوعات الجلدية ، حتى ان مراكش تعلمت صناعتها الجلدية من اسبانيا العربية . وتقدمت صناعة الزجاج والخزف ، وكذلك استخراج معادن الذهب والفضة والحديد والرصاص . واشتهرت وانتعشت الزراعة بفضل الري الذى أدخله العرب ، الذين جلبوا الى اسبانيا ايضا الموالح التى جاءت الى العالم العربى من الهند ، او كذلك العنب والخوخ والمشمش والقطن وقصب السكر . ولا يزال الطابع المغربى باديا فى حدائق وكروم اسبانيا الحديثة .

وازدهرت تجارة الصادرات التى كان يتولى نقلها اسطول عبد الرحمن التجارى الي أركان العالم البعيدة . وكانت انجلترا وفرنسا تستوردان منتجات اسبانيا ، التى كانت تجد طريقها أيضا الى الشرق الاقصى فى الهند وآسيا الوسطى . وتشهد الاصول العربية لبعض المفردات البحرية الاوربية ، الحديثة مثل (اميرال) و (تعريفة) على مدى انتشار التأثير ، الذى احدثه أولئك الملاحون التجاريون العرب . كما ان العملة التي أدخلها العرب الاسبان قد افادت على مدار ، الاربعمائة عام التالية كأداة التبادل النقدى الوحيدة فى أجزاء من اوربا .

كان مثل هذا الرخاء كفيلا بأن يجيء بايراد ضخم . فقد اصبحت تتدفق الآن فى خزانة الخليفة ستة ملايين

وربع مليون من الدينارات كل عام . ومن هذا المبلغ كان يحتفظ بالثلث كاحتياطى ، وثلث آخر ينفق على الجيش ، والثلث الباقى كان يخصص للأعمال والمباني العامة .

وكان عبد الرحمن مكثرا فى اقامة المبانى . فقد بنى جامعة قرطبة وكثيرا من المساجد السبعمائة . وليس من شك فى أن اجمل اعماله هو قصر المرمر الرائع ، القائم على بعد أميال قليلة من قرطبة ، والذى اقامه خصيصا لحظيته الزهراء وسماه باسمها . فقد اشتمل على أكثر من اربعة آلاف من الأعمدة المرمرية جلبت من ايطاليا وقرطاجة وبيزنطية ، وقام بالعمل فيه عشرة آلاف من أرباب الحرف تحت اشراف أعظم مهندس معمارى بيزنطى فى ذلك العهد مدى عشرين عاما حتى اتموه . واليوم لم يبق منه سوى أسسه وقليل من الجدران والأرضيات واطلال الضاحية الملكية التى امتدت حول القصر وضمت أكثر من اثنى عشر الفا من الناس . أما الباقى فقد نقل بعد الغزو المسيحى فى القرن الخامس عشر لبناء الدير الشاسع فى سان جيرونيمو فى التلال المجاورة .

وقد أفلح الحكم خليفة عبد الرحمن فى المحافظة على تماسك الخلافة طوال الخمسة عشرة عاما من حكمه . ولكنه عندما توفى عام ٩٧٦ وخلفه ابنه هشام البالغ من العمر اثنى عشر عاما ، أصبح الحاكم الحقيقى لقرطبة شخص لا خلاق له يدعى محمد بن ابى امير الذى تسمى تظاهرا باسم المنصور . وكان المنصور خلال حكم هشام كاتب رسائل فى البلاط ، ولكنه استطاع بعد وفاة الخليفة ان ينال الحظوة عند ارملته حتى استوزرته .

وبعد ان سيطر على حرس الخليفة الصبى وكانوا خليطا من اربعـــــة آلاف من الأسرى الاوربيين الذين سماهم عبد الرحمن الصقالة وادخلهم فى الاسلام ـ جدد المنصور الحرب ضد لنون ونافار ، وفيما بين عام ٩٨٥ ونهاية القرن خرب الجزء المسيحى من اسبانيا ، فنهب برشلونة ودمر ليون . ولكنه فى عام ١٠٠٢ أضاع ما ناله ، وقتل وهو يحارب فى قشتالة .

وكان انتصار المنصور القصير الأمد ايذانا بنهاية الفتح العربى فى اسبانيا ، وبموته بدأت الخلافة الاسبانية تلفظ نفاسها ايضا . فقد انقلب حرس الصقالة على الخليفة الفتى وجعلوه اسيرهم . وتمرد البربر بدورهم لانتزاع كل ما يستطيعون من الدولة الأموية المجـــــزأة . وفى عام ١٠٠٩ تنازل هشام عن الخلافة ، وفى خلال الاثنين والعشرين عاما التالية تعاقب ستة خلفاء بسرعة غريبة دون أن يكون لأحدهم سلطان ما ، وكان كل منهم العوبة اما فى ايدى الصقالة أو البربر أو ابناء قرطبة ، حتى اذا أدى الدور المرسوم له قتل بأيدى حرسه أو لقى حتفه بالسم أو اختفى من المسرح ببساطة .

وعند انتهاء القرن الحادى عشر كان النفوذ العربى فى اسبانيا ينكمش فى كل مكان . ليحل محله البربر أولا ثم المسيحيون . فبعد خلافة متحـــدة متماسكة أعقبها عشرون من الأسر الحاكمة والجمهوريات الهزيلة ، كانت كل منها فريسة سهلة للملوك المسيحيين فى الشـــمال ، الذين امتدت انتصاراتهم حتى طليطلة وبلنسية . وقـد جرت المعركة الفاصلة عام ١٢١٢ عند لاس نافاس دى تولوزا ، عندما تمكنت قوة ضخمة من جيوش المسيحيين

المتحدة من قشتالة وأرغن ونافار من هزيمة الجيش العربي . وعندئذ اصبحت اسبانيا المسيحية تحت امرة الغزاة ، فسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ ، واشبيلية عام ١٢٤٨ . ولم يتمكن من الصمود سوى روندا الجبلية الحصينة وغرناطة . ولكن بعد قرنين دمرتهما الجيوش المشتركة لفرديناند ملك أرغن وايزابيلا ملكة قشتالة .

وهكذا اختفى الحطام الطافي في اسبانيا للمد الاموى المنحسر ، ودالت الامبراطورية الثالثة والأخيرة للعرب . وكما حدث بالنسبة للأمويين في الشام وللعباسيين فى العراق ، كان الحال كذلك بالنسبة للأمويين فى اسبانيا . في كل حالة كان العرب يبلغون ذروة القوة والمكانة على أيدي حكام مقتدرين ، ثم لا يلبثون أن يخسروا كل ما ظفروا به حالما يختفى اولئك الحكام المقتدرون من المسرح .

ومن عجب ان استقراء تواريخ الامم والشعوب يدلنا على ان فترات الانتصارات الحربية قلما كانت تهيىء المناخ الصالح لازدهار الثقافة والعلم ، فى حين ان فترات الاسترخاء ، وأحيانا الانحدار ، هى التى اتسمت بالثراء الثقافى والعلمى . ولقد كان الحال كذلك فى اسبانيا العربية ، نعم ان حكم عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم المشغوف بالكتب قد زرع بذور التطور الثقافى وجعل من قرطبة المركز الثقافي فى أوربا . ولكن انجازهما يخبو بريقه امام الوثبة الكبرى التى اعقبت انهيار دولة الأمويين الاسبان . ففى مجالات الأدب ، والشعر ، والموسيقى ، كان تأثير اسبانيا العربية فى أوربا أقوى وأرسخ من تأثير العباسيين . هناك على بن حزم الذى

كان حفيدا لمسلم اسبانى تحول عن المسيحية ، وهو واحد من أغزر المؤلفين انتاجا وخصبا فى كل العصور . فى شبابه خدم هشام الثالث آخر خلفاء الأمويين الاسبان الذى أستوزره ، ثم أنتقل الى الكتابة عن خلع سيده على يد العصبة العسكرية . لقد أتم تاليف نحو اربعمائة كتاب شملت شتى الموضوعات كالتاريخ والشعر وعلوم الدين والمنطق .

ومعظم الملوك الصغار الذين توالوا بعد سقوط الخلافة الاموية فى قرطبة كانوا يعينون امراء للشعر فى بلاطاتهم ، التى قامت منافسات حامية بين دويلات اشبيليه وطليطلة وغرناطة ، وكل حاكم يبارى الآخرين فى التفوق الادبى ، وجميعهم قد عقدوا العزم على ان يكسف ضياؤهم بهاء قرطبة الوهاج . وكثير من موسيقى اسبانيا اليوم ، مثل الفلامنجو المشهورة ، ترجع أصولها الى الأغانى الشعبية وقصائد الحب التى الفها الشعراء والموسيقيون العرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وكان يغنيها المنشدون الجوالون ، وهم أسلاف « التروبادور » الذين عرفتهم أوربا فيما بعد .

ولقد اهتمت اسبانيا العربية اهتماما قويا بالتعليم العام ، وخصوصا تعليم المرأة ، حتى كانت نسبة عالية من السكان تتقن المعارف الأولية كالكتابة والقراءة (خصوصا تلاوة القرآن) وقواعد اللغة العربية والشعر ، وبحلول منتصف القرن الرابع عشر لم تكن قرطبة وحدها هى التى تفاخر بما لديها من معاهد التعليم العالى التى تدرس فيها علوم الدين ، والفلسفة والقانون والرياضيات والطب والفلك والتاريخ

والجغرافيا ، بل حذت حذوها فى ذلك أيضا غرناطة وملقة واشبيلية . وكان فى كل بلاط ملكى مكتبته الخاصة به الى جانب العديد من مجموعات الكتب المملوكة للأفراد .
والحق ان امتلاك مكتبة زاخرة بالكتب الفاخرة التجليد أصبح عنوانا لمكانة الطبقــات الأوفر ثراء ، ويرجع ثراء ونفاسة المخطوطات العــربية الباقية اليوم فى قصر الاسكوريال قرب مدريد ـ وهو واحد من أنفس واغنى ما هو موجود من مثله فى العالم ـ الى ما جمعه فيليب الثانى وفيليب الثالث مما بقى من مكتبات اسبانيا العربية بعد الغزو المسيحى .

وفى مبـــادين الطب وعلم النبات والفلسفة ، كما فى الأدب والشعر ، كان للعرب الأسبان تأثير بالغ فى تقدم الثقافة الاوربية، فمن الزهراوى طبيب البلاط لدى الخليفة الحكم الثانى الذى اكتسب مكانة جعلته معدودا أعظم جراح فى العالم العربى ، الى الفيلسوف والطبيب العظيم فى القرن الثانى عشر ابن رشد ـ كان علم الطب الذى جمعه العرب الاسبان من مصر والعراق وفارس ، يتدفق الى أوربا المسيحية فى مجرى لا ينقطع . (ولا تزال آثار التأثير العربى موجودة فى لغة الكيمياء التى تدين للاشتقاق العربى بمصطلحات مثل : صودا ، الكحول ، شراب ، قلوى) .

نعم ان قرب اسبانيا الى أوربا كان عاملا له اعتباره فى هذا التأثير ، ولـكنه كان افعــل أثرا وأكثر اهميـــة بالنسبة لمترجمين اوربيين مثل جيرار الـكريمونى الذى ترجم الى اللاتينية مؤلفات الرازى وابن سينا والزهراوى، وأديلارد الباثى مترجم الخوارزمى . وينصب هذا بصفة خاصة على التقدم الذى حققه العرب فى مجال الابحاث .

ففى الوقت الذى كان فيه الممارسون الأوربيون مقيدين بالتعاليم المسيحية ، استطاع العرب اجراء بحوثهم العلمية فى جو متحرر نسبيا من القيود الدينية . وعلى سبيل المثال فانه حتى القرن الرابع عشر كانت أوربا المسيحية لا تزال تعتقد اعتقادا راسخا بأن « الموت الأسود » هو من عند الله ، فى حين ان طبيبا مسلما من غرناطة كان يصر على انه مرض معـد ، كما « اثبتته التجربة ، والاستقصاء ، وادلة الحواس ، والتقارير الموثوقة » .

وكان علم النبات من العلوم الأخرى التى ازدهرت فى اسبانيا العربية . فانه لم يتم فقط استيراد كثير من انواع الفـاكهة والأزهار من الشرق العربى ، بل قد اجريت كذلك بحوث مستفيضة فى الحيـاة النباتية والتربة والمخصبات . وقد انعقد الاعتراف للعرب الاسبان بالبروز والتفوق فى العصور الوسـطى فى تقرير انواع العلاج لأمراض النباتات .

وكما قال مؤرخ معروف فان ذروة الانجـاز الثقافى العربى فى اسبانيا أنما كان فى مجال الفكر الفلسفى . وكان ابن رشد ، آخر واعظم الفلاسفة العرب ، ارسخهم قدما فى عقلانيته التى اخضعت كل شىء ، ما عدا اسس الاسلام المقدسة ، للاستدلال العقلى والتمحيص المنطقى .

ومن ابرز التعـاليم التى اخضعها ابن رشد لهذا الأسلوب العقلانى مؤلفات ارسطو . وعلى الرغم من ان موسوعته فى الطب وبحوثه فى مرض الجدرى وامراض العيون قد اسهمت فى مجال البحث الطبى بنصيب وافر مثل اسهام غيره من الأطباء العـرب ، فان ما يذكر به

اساسا ويحله محل التقدير والاحترام انما هو دوره في شرح فلسفة ارسطو . والواقع ان قلة من الكتاب الآخرين تهيأ لهم أن يسيطروا على عقول العلماء والطلاب الأوربيين في العصور الوسطى كما سيطر ابن رشد ، ولقد ظلت مؤلفاته مصادر وثيقة في جامعات الغرب لما لا يقل عن اربعمائة عام بعد وفاته في نهاية القرن الثاني عشر . والواقع ان شهرته كانت أكثـــر ذيوعا في اوربا منها في العالم العربي . ذلك لأنه توفر أكثر من اى فيلسوف آخر في عصره على شرح الفكر اليوناني للغرب ـ رغم انه هو نفسه لم يكن يقرأ كلمة واحدة يونانية وكان يعتمد على الترجمات العربية ـ وبهذا كان هو الموجه والمعوان على فتح العصر المدرسي في أوربا .

وجاء علماء آخرون واصلوا العمل الفلسفي والطبي لابن رشد وغيره من فلاسفة القرن الثالث عشر . ولكن بحلول عام ١٢٥٠ كان الغـزو المسيحي قد توغل في اسـبانيا ، وبالقضاء على الحـكم العربي جفت ينابيع الالهام التي نهل منها المفـكرون العظام . فكما ادت القيود العقائدية في المسـيحية الى احباط التطور الفلسفي في اوربا العصور الوسطى مما افـادت منه اسبانيا العـــــربية ، كذلك ادى الغزو المسيحي بشبه الجزيرة الى شعور الفلاسفة العرب بالاختناق بسبب القيود العقـائدية التى فرضت عليهم . ومن المحزن ان التاثيرات الليبرالية التى نقلهـا الفلاسفة العرب في اسـبانيا الى اوربا المسـيحية لم تجد بأى حال انعكاسا لها في سياسات قاهريهم المسيحيين . وبعد قيام محاكم التفتيش بدا كان الأوربيين قد عقدوا العزم على ان يسحقوا الى الابد النظام الليبرالى الذى

مكن رجالا كابن رشد من المساعدة فى انتشال اوربا من العصور المظلمة الى عصر جديد للمعرفة . ذلك انه بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٠ ، فرض التحول الى المسيحية قسرا ، وفى عام ١٥٥٦ اجبر كافة المسلمين بقوة القانون لا على التخـــــلى فقط عن ديانتهم بل كذلك عن لغتهم ومؤسساتهم . واخيرا ، عند بداية القرن السابع عشر ، كان اى مسلم لا يزال باقيا على دينه اما ان يعدم او ينفى عنوة الى افريقية .

وعلى النقيض مما كان من الغزاة المسيحيين لاسبانيا ، فان النورمانديين الذين اســـتعادوا صقلية ومالطة بعد عام ١٠٦٠ قدموا مثالا فريدا للتعاون الاوربى العربى . لقد استطاع العــــرب على مدار قرن ونصف بعد غرق الاغالبة فى المد الفاطمى المتعالى ان يتشبثوا بوجودهم فى صقلية . بيد ان قبضتهم اصبحت واهية بسبب الحروب الاهلية بين الطوائف الاسبانية والافريقية للسكان ، وعندما غزا الكونت روجر النورماندى الجزيرة عام ١٠٦٠ ظفر سريعا بموطىء قدم باستيلائه على مسينا . وبعد ثلاثين سنة استولى على مالطة واتم اعادة غزو صقلية .

والواقع ان ما طالع العقلية المحدودة التعليم لهـــذا النورماندى المسيحى البسيط من رقى التعـليم وقـوة التاثير الاسلامى فى صقلية قد اثار بالغ دهشته . ففى باليرمو وحدها كان يوجد اكثر من ثلاثمائة مدرس ومثل هذا العدد من المساجد . ذلك لانه فى صقلية اكثر من اى مكان آخر فى الامبراطورية ، وجدت ثقافات الشرق والغرب ملتقى طبيعيا فى الجزيرة ، حيث كانت اللغات اليونانية والعـــربية واللاتينية طوال الاحتلال الاغلبى

والفاطمى مستخدمة بقدر متساو كأداة التخاطب السائدة لاخلاط السكان اليونانيين والعرب والأسبان والايطاليين .

وبدلا من قمع اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ، اتجه روجر الى استغلال ورعاية الثقافة التى وجدها فى هذه الجزيرة المتعـــــددة الالسن . فعين المسلمين فى ارفع مناصب الحكومة ، وجند اغلب قوة جيشه من الحاميات التى هزمها ، وحشد فى بلاطه الفلاسفة والشعراء والأطباء العرب . وترك للمسلمين الحرية لمارسة عقيدتهم الدينية ، ومواصلة الانشطة التجارية والصناعية والزراعيـــة التى ادخلوها وساعدوا على ازدهارها . بل ان ولده وخليفته روجر الثانى ذهب الى أبعد من هذا ، فارتدى اللباس الشرقى المزخرف بحروف عربية ، وهو تقليـــــد سرعان ما حاكته سيدات صقلية المسيحيات . واستخدم أرباب الحرف العرب لاقامة وزخرفة كنائس جديدة . وتولى ابو عبد الله الادريسي اعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط واكثرهم اصالة فى ذلك العهد زخرفة البلاط . كما ان حفيد روجر الثانى ، فريدريك الثانى الذى حكم صقلية والمانيا وأصبح عاهلا للأمبراطورية الرومانية المقدسة وملك بيت المقدس على أخريات عهود الحروب الصليبية ــ حافظ كذلك على هذا التقليد ، بعد اذ عاد من مغـــامراته فى الشرق وهو أشد تأثيرا بالاسلام منه تشربا لروح الغزوات الصليبية . وكان بلاطه يعج برجال العلم ويحتذى كثيرا من أنماط الحياة الشرقية .

وبفضل تأثير خلفاء روجر الأول الموالين للعرب ، تهيأ للحضارة العربية أن يستمر نفوذها فى صقلية الى عهـــد مهند حتى القرنين الرابع والخامس عشر . وفضلا عن

ذلك بسبب سيطرة الملوك النورمانديين على جنوبى ايطاليا الى جانب صقلية ، وجدت الثقافة العربية طريقهـــا الى ايطاليا ذاتها . وأصبحت الحـــرف اليدوية مثل الاشغال الحـكومية وتجليد الـكتب والتطعيم بالذهب والفضة ونسج الحرير يؤتى بها من صقلية الى ايطاليا ، وامتد التأثير الى أشكال معينة من فن المعمار ـ مثل ابراج الاجراس التى نقلت اغلب الظن محاكاة للمئذنة الاسلامية . اما عن ازياء اللباس ، فقد اصبحت الاقمشة الشرقية تحاكي فى معظم البـــلاطات الاوربية ، وغدت الرسوم والتصميمات الصقلية ، تحتـــذى لدى الرجال والنساء من الطبقات الراقية فى كل مكان .

والواقع ان من الانصاف القول بان صقلية قد لعبت دورا يماثل فى عظمته دور اسبانيا العربية فى نقل الفنون والحرف العربية الى اوربا . ونظرا لان صقلية كان من حسن حظها ان غزاتها الجـــدد كانوا حكاما متنورين ومتعاطفين نسبيا ، فقد استمر العرب الصقليون يلعبون دورهم وقت ان كان أبناء عمومتهم فى اسبانيا يلقون القمع بايدى الغزاة الاوربيين . ولكن بسبب قلة اعدادهم فانهم لم يستطيعوا الاحتفاظ الى ما لا نهاية بتفوقهم الثقافى دون استمداد افكار جديدة من المراكز الاهلية الـكبرى للعلم والمعرفة العربية فى بغداد ودمشق وقرطبة. فاذ ذاك كان قد انطفأ كل امل فى مثل هذا التعزيز الثقافى . فان بغداد ودمشق خربتا اولا بايدى جحافل المغول القـــادمة من آسيا الوسطى ، ثم ســقطت بعد ذلك تحت الايدى الهامدة الميتة للاتراك العثمانيين . أما فيما يتعلق بقرطبة فان ما اطلقوا عليه (حل المشكلة المغربية) جعل محاكم

التفتيش الاسبانية تخمد بصورة دائمة أسنى ضـو للمعرفة فى عالم العصور الوسطى .

وبعد ذلك دارت العجلة دورة كاملة . فان الثقافة التى جاءت للعرب من اليونان القديمة ، ما لبثت أن عادت الى أوربا الحديثة . وخنق كل الجهد الادبى العربى على مدار الثلاثمائة والخمسين عاما التالية . وجاء الدور على العرب لـكى يغيبوا من جديد فى العصور المظلمة .

الفصل الرابع عشر :

ثـــورة الشـــيـــعــة
وانهيـــار الدولة العبـاسية

حينما انهارت الأسرة الأموية الحاكمة في عام ٧٥٠ انتهز العلويون الفرصة لتحقيق حلمهم في الخلافة وربطوا حظهم بالثورة العباسية . والآن ما لبثوا ان برزوا مرة أخرى لاستغلال تدهور نظام الحكم العبـــاسي . فعندما أسلم خلفاء المأمون انفسهم لحراسهم الأتراك ، كان الشيعيون متربصين لتحقيق الحلم ، وفي هذه المرة فقط أوشكوا على تحقيقه .

بيد ان الانقسامات التي تعرض لها مذهبهم عاقت هذه الحركة بسبب اصرارهم على أن يكون الخليفة من نسل علي ، حتى سموه (الامام المهدي) ، ثم (المنتظر) . ولم يتيسر اجتماعهم على رأي الا بعد ظهور طائفة منهم عرف أفرادها باسم (الاسماعيلية) ، نسبة الى اسماعيل من أحفاد الحسين . وكان مؤسس هذه الطائفة عبد الله بن ميمون ، وكان ابن طبيب عيون فارسي ، وقد بدأ نشاطه بتنظيم ثورات شيعية .. أثنـــاء حكم المأمون . فأخذ يرسل مبعوثه الى البصرة أولا ثم الى السلمة في شـــمال الشام للتشكيك في معتقدات السنيين ولاعلان قرب قدم الامام المنتظر الذي سيعود يوما الى الظهور ويعيد الدين القويم ، ولما كان داعية سياسيا فقد استغل الى أبعد

حد العداوة المتزايدة بين العرب والفرس واعلن انه يهدف الى تشكيل حركة توحد بين كافة المفكرين الاحرار وتتمكن من انتزاع الخلافة من العباسيين (المغتصبين) وتضعه هو وذريته على العرش .

واذا كانت هذه المطامع الشخصية لابن ميمون لم تتحقق ، فبوفاته عام ٨٧٤ كان قد استهل حركة أدت الى ظهور طوائف وجماعات سرية أخرى استطاعت بدورها بث الرعب والاضطراب في الامبراطورية ، ونجحت على الأخص وبصورة مثيرة في اجلاس أسرة شيعية حاكمة على عرش مصر على امتداد مائتي عام . واول هذه الجماعات شكلها احد اتباع ابن ميمون المتعصبين له وهو حمدان قرمط وكان فلاحا من العراق . وقد استطاع بقوة شخصيته استغلال معاناة الفلاحين المحليين وبدو القبائل وتاليب هؤلاء على الأخص بالعراق والشام وبلاد العرب ودفعهم الى الثورة ضد العباسيين والاتراك المتسلطين عليهم ، وعلى مدار المئة عام التالية واصل القرامطة هجماتهم على الخلافة واغرقوا الشام والعراق في الدماء . ولكن على الرغم من نجاحاتهم في هذا الميدان ، فقد ظلوا مجرد حركة فوضوية تؤثر مقاومة سلطة الآخرين على ممارستها لنفسها .

بيد ان أبناء عمومتهم الفاطميين كانت لهم قصة أخرى مختلفة تماما . فعلى الرغم من انتمائهم أيضا لطائفة الاسماعيلية ، الا أنهم لم يأخذوا بمذهب القرامطة التخريبي ، وقد تهيأ لهم أن يظفروا بامبراطورية وأن يقيموا بخلافة لهم اصبحت أشد قوة واعلى مكانة مما كان لمعاصريهم العباسيين .

كان مؤسس الفاطميين ، الذين اتخذوا اسمهم من

دعواهم بصلة النسب الى فاطمـــــة بنت النبى ، هو سعيد بن حسين ، من نسل عبد الله بن ميمون مؤسس الاسماعيلية الفارسي . وفي عام ٩٠٩ قدم الى تونس من مركز الاسماعيلية في السلمية ، وعلي الرغم من الزج به في السجن على يد الحاكم الأغلبي ، الا انه أنقذ بمساعدة يمنى يدعى عبد الله الحسين . وكان عبد الله قد نجح في تحويل قبائل البربر في شمال افريقية الى المذهب الشيعي ، وقد تعاون هو وسعيد بعد خلاصة من السجن فى الاطاحة بالأغالبة السنيين والاستيلاء علىامبراطوريتهم الخاصة ، بما فيها صقلية ومالطة . وقد نودي بسعيد اماما وخليفة واتخذ لقب عبيد الله المهدى . ثم أسس عاصمة جديدة سماها المهـــدية على الساحل التونسي قرب القيروان ، واتجه بعد ذلك الى بسط رقعة ملكه غربا . ولكن بعد أن واجهـــه عبد الرحمن الثالث على ساحل البربر تحول بالزحف الى مصر . وفى عام ٩١٤ استولى على الاســــــكندرية ، وبعد عامين خرب دلتا النيل . كما استعان بالأسطول الذي غنمه من الاغالبة واغار على سواحل فرنسا وجنوا وكالابريا .

ولم تؤد وفاة ســــعيد عام ٩٣٤ الى وقف التوسع لامبراطورية الفاطميين . فقد استانف ولده الضغط على سواحل أوربا واستولى على جنوا ، واستطاع المعز أحد حفدته ان يمد حدوده الغربية حتى المحيط الاطلنطي . ثم لم يلبث الفاطميون ان حققوا أعظم انتصار لهم باضافة مصر الى امبراطوريتهم المتزايدة . كان عبد صقلي سابق يدعى جوهر الصقلي هو قائد جيوش الفاطميين التى فتحت مصر . وبعد اربع سنوات من دخوله المظفر الى العاصمة ، اقام اثرا أعظم لتخليد شهرته باضافة حي جديد الى الفسطاط هو الذى أصبح عاصمة مصر الفاطمية

تحت اسم القـــاهرة . وفي نفس الوقت بنى جوهر الصـــقلي جامع الأزهر العظيم ، الذى غدا أكبر معهد للدراسات الاسلامية .

ولم تلبث مصر أن تحولت من المذهب السنى القويم الى الهرطقة الشيعية ، ولعل قبول المصريين لهذا التحول كان راجعا الى حنين الكثيرين منهم الى حدوث تغيير يهيىء لهم استقلالا حقيقيا عن السيطرة العبـــاسية . نعم أن الفاطميين عجلوا فيما بعد على نقض هذا الاثر الطيب لهذا التغيير عندما فرضوا المذهب الشيعى على المصريين عنــوة وعنــدما عادوا الى اسلوب العباسيين فى جلب المماليك الاتراك لتعزيز الجيش . ولكن مصر كلها ابتهجت عندئذ بهذا التحرر الذى بدا فجاة كأنما هبط نعمة على الناس .

وبالاستيلاء على مصر ورث الفاطميون السيطرة على الشام واليمن والحجاز ، بما فى ذلك المدن المقدسة التي كانت الخلافة المضمحلة فى بغداد عاجزة عن رفع ايديهم عنها ، ولم تلبث خلافة الفاطميين الشيعية المنافسة أن فاقت العباسيين السنيين قوة ونفـــوذا . فمن المحيط الأطلنطى الى المحيط الهندى كان اسم المعز هو الذى يذكر فى صلاة الجمعة دون اسم الحاكم الأعزل فى بغداد .

ومع ذلك ، وبرغم نجاح الأسرة الفـــاطمية فى اول عهدها ، فلم يقدر لها ان تكون اطول عمرا من العباسيين . ولم يمض وقت طويل على الانتصار الكبير الذى حققه جوهر حتى بدات الأسرة في التدهور . فان (الحاكم) حفيد المعز كان فى الحادية عشرة من عمره حين ولى العرش ، وعندما بلغ طور الرجولة بدا جليا انه متعصب مجنون يتلذذ بالقسوة والقمع ويمارسهما باسلوب شيطانى

ضد المسيحيين واليهود ، اذ اجبرهم على لبس السواد وركوب الحمير ووضع اطواقه حول اعناقهم . وقد قتل (الحاكم) العديد من وزرائه الذين سعوا الى التخفيف من بشاعة اعماله . وفى محاولة عمياء للقضاء على المسيحية فى املاكه دمر عددا من الكنائس . وقد جاوز هذا المجنون كافة الحدود عندما ادعى الالوهية ، واخيرا لقى حتفه قتلا فى عام ١٠٢١ فوق جبل المقطم بتحريض من اخته التى اتهمها فى عفتها .

وقد حاول خلفاء (الحاكم) التعويض عن تطرفه ، فبدأوا باعادة بناء كنيسة القيامة . بيد انهم كانوا فى اغلبهم شبانا ينقصهم النضج ، عاجزين عن وقف الفساد الذى عم . فقد ثارت الشام وفلسطين على السيطرة المصرية . واستولى النورمانديون على صقلية ومالطة ، واخذت ولايات الامبراطورية الفاطمية تنسلخ واحدة تلو الاخرى ، بل ان بعضها عاد الى ولائه القديم للعباسيين . وفى الداخل عاد الحرس من المماليك الاتراك والشراكسة الى تكرار عملية مواطنيهم فى بغداد ، فاغتصبوا سلطة الخليفة ، وعينوا وزراء من ذيولهم المقربين . يضاف الى هذا كله تفشى المجاعة مدى سبع سنوات مما ادى الى خراب البلاد واستنزاف مواردها .

ومع ذلك فان الفاطميين برغم هذه النكسات وتأثرا منهم باصول الفارسية ، استمروا يحيون حياة الترف والابهة التى كادت تضارع مثيلتها فى بغداد فى عصر « الف ليلة وليلة » . وكان القصر فى القاهرة يؤوى ما لا يقل عن ثلاثين الفا من الناس ، نصفهم من الخدم والباقى من جنود حرس الخليفة وعائلاتهم . وكان للخليفة شخصيا عشرون

الف بيت فى العاصمة ، معظمها من الطوب وبارتفاع حوالى خمسة طوابق ، وعدد مماثل من الحوانيت . وكانت الشوارع الرئيسية مرصوفة ومضاءة ، وشوارع الاسواق مسقوفة . وكانت الأمانة وحسن المعاملة مرعيتين الي حد كبير . وكانت الرقابة الصارمة على الأسعار مفروضة على اصحاب الحوانيت ، وكان من يبيعون باسعار تجاوز الحد الأقصي يطاف بهم فوق جمال . ويكرهون امام الناس على الاعتراف بسوء فعالهم . وكانت السرقة تكاد تكون غير معروفة ، وكانت حوانيت الصاغة والصيارفة تترك بغير اقفال فى الليل . وكان الخلفاء الفاطميون يقتنون مجموعة ضخمة من المجوهرات والحلى الذهبية وآنية المائدة والبللور والعاج والأبنوس . وكانت سيوفهم وخناجرهم مطعمة بالاحجار الكريمة ، وفى المناسبات الرسمية العامة كانت تمد فوق رءوسهم مظلات كبيرة محلاة بالجواهر . ومع ذلك فعندما اصابت المجاعة مصر عام ١٠٧٠ لم يتردد الخليفة القائم فى ارسال اطفاله الى بغداد لئلا يتعرضوا للموت جوعا فى مصر .

وفى مجال التقدم الثقافى كان الفاطميون متخلفين كثيرا عما كان ينتظر من اسلافهم الفرس . لقد بنى جوهر الصقلى جامع الازهر ، واسس العزيز اب (الحاكم) مكتبه قيل انها ضمت فى وقت من الأوقات مائتى الف كتاب ومخطوط ، تعرض الكثير منها فيما بعد للنهب على أيدى الجنود الاتراك الذين استخدموا المخطوطات فى اشعال نيرانهم واغلفة الكتب الجلدية فى ترقيع نعالهم . وكان (الحاكم) ايضا مشغوفا بالفلك ، فبنى مرصدا فوق جبل المقطم الذى لقى فيه مصرعه . كما بنى (دار الحكمة) للترويج للمذهب الشيعى . ولكن ، بغض النظر عن هذه الامثلة القليلة ، كان الانتاج الثقافى

للفاطميين هزيلا . فقد كان العلماء والكتاب سواء كانوا من أبناء البلاد أو من الخارج لا يجدون الا أقل التشجيع وأكبر التخذيل فى جو يسيطر عليه التعصب الشيعى . ومع تقدم الحكم الفاطمى تحول ما بدا انه تغيير منعش الى لون من التعصب الشديد تفاقم الى حد انكار كل حرية للتعبير .

لكن اذا كان التعصب الشيعي قد حال دون قيام رجال الفكر برسالتهم ، فان غيرهم قد خيل بينهم بالمثل وبين الثورة على الحكومة الدينية الغـــالبة وعلى التخالف غير المقدس بين المماليك والخلفاء . وهكذا تشبث الفاطميون بملكهم المتهـــــاوى مدى مئة وخمسين عاما بعد موت (الحاكم) . وفى خلال المائة عام الأخيرة من حكمهم ، لم تكن امبراطوريتهم تتألف الا من القليل غير مصر ذاتها . ولكن ، مع اشتداد ضعف بغـــداد وانهماكها البالغ فى مشاكلها الخاصة مما حال بينها وبين محاولة استرداد مصر ، فقد اتيح لهـــذا الفرع المتداعى من الطـــائفة الاسماعيلية أن يظل بعيدا عن التحدى ، الى أن أصبحت مصر مسرحا للقتـــــال بين صلاح الدين والصليبيين فى عام ١١٦٤ .

وقبل أن يبدأ الفاطميون فى مصر فى التدهور والانهيار بوقت طويل ، كان العباسيون التعساء فى بغداد يتداولهم الحكام الأتراك واحدا بعد الآخر ، وكل منهم يغتصب السلطان بفلظة أشد من سابقه ، كان الخلفاء يجيئون ويذهبون ، كل منهم يقتل أو يخلع بعد بضع سنوات ، وجميعهم لم يكونوا سوى أدوات ذليلة بين أيدى سادتهم الأتراك . وكان الفساد والغدر هما الطابع الغالب فى تلك الأيام . لم يكن احد آمنا على نفسه من السفاح ، وأقلهم

حظـــا من الأمن كان الخليفة نفسه . وفيما يختص بالامبراطورية ذاتها ، فان عوامل الفرقة التى لابد من وجودها فى كومنولث متعدد القوميات استغلت الى اقصى حد الضعف السائد فى المركز . فبنهاية القرن العـــاشر كان شمال افريقية ومصر مستقلين ، وذهبت الشام مع مصر ، واجتاح القرامطة شبه الجزيرة العربية وجنوب العـــــراق . وانسلخت أجزاء من فارس قبل ذلك ، فحكمتها سلسلة من الأسرات الصغيرة المستقلة تعاقبت عليها ، مثل الصفارية ، والسامانية ، وبنى بوية الذين اقاموا الدولة الغـــــزنوية وكانت لهم مطامع فى غزو العراق . ولما تم لهم ما أرادوا صاروا يعينون الخلفـاء ويعــــزلونهم حسب اهوائهم ، وأصبحت بغداد مجرد عاصمة اقليمية تخضع للأوامر التى تصـــدر اليها من عاصمتهم فى شيراز .

وفى خلال ذلك بدات قوة تركية جديدة فى الشرق تتوغل فى املاك الغزنويين . كانوا الســــلاجقة الاتراك الذين استمدوا اسمهم من زعيم تركمانى يدعى سلجوق ، الذى قاد قبيلته عام ٩٥٦ من سهول القرغيز فى تركستان لكى يستقر فى الاقليم المحيط ببخارى ، حيث اصبحوا مسلمين سنيين متحمسين . وبانتهاء القرن قام طغرل حفيد سلجوق بالزحف الى خراسان واستولى على مرو ونيسابور من الغزنويين . وبانتشار جيوش طغرل فى أراضى الغزنويين استولوا أيضا على بلخ والرى واصفهان . وبعد ثمانى عشرة سنة من اول زحف لجيوش طغرل من بخارى ، وصل على راس قبائله الى ابواب بغـــــداد ذاتها . كان ذلك فى الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٠٥٥ ، أى بعد مئة وعشر سنوات من وصول الغزنويين الى هذه الأبواب . وكما حدث فى المرة السابقة عندما

فر حرس الخليفة الاتراك امام الغزنويين ، فان هؤلاء فروا الآن من السلاجقة ، ولم يتركوا للخليفة خيـارا سوى الترحيب بالفاتحين الجدد .

وقد انتزع طغرل ايضا آخر قطرة من المجد لنفسه والاذلال للخليفة فى الاحتفال الذى نصب فيه وصيا على الامبراطورية وملكا على الشرق والغـــرب ، مـع لقب السلطان . لقد جلس طغرل على عرش فى مواجهة الخليفة ، حيث تلقى خضوعه وتأكيدا بصداقة دائمة . وبعد هـذا المشهد المنقطع النظير خلعت عليـه سبعة أثواب تسكريما له ، تمثل الولايات السبع البـــاقية فى الامبراطورية العباسية ، وحزام به سيفان يرمزان الى نصفى المملكة الشرقى والغربى . وفى النهاية زحف طغرل بجيشه من بغداد واتخذ عاصمته فى مرو باقليم خراسان .

وقد اتبع طغرل هذه الانتصـــارات بالزواج من ابنة الخليفة . بيد انه لم يمتد به العمر بعد الزواج ، اذ توفى عام ١٠٦٣ ، تاركا ابن اخيه الب أرسلان أو (البطل الأسد) خلفا له . وكان هذا الشاب اللامع الوسيم قد علا شأنه فى غزوات السلاجقة لفارس والعراق ، كما كان اقرب الى الغرابة ، اذ كان له شاربان فائقا الطول الى حد كان لابد معه من ربطهما الى وجهه اذا خرج للصيد . وبالنسبة الى شخصه كان أبوه مجرد كافر همجى قبل أن يتحول الى الاسلام وكان هو ذاته أميا تماما ، فان تقديره للفنون كان مثارا للغرابة . لقد امضى طغرل معظم حكمه القصير للعراق فى تدعيم مركز السلاجقة والقضـاء على ما جاء به الغزنويون من النفـوذ والعـادات الشيعية . وهكذا فانه عنـــدما ورث الب ارسلان السلطة كانت

الامبراطورية العباسية موحدة كما لم تكن لأكثر من مئة وخمسين عاما . نعم ان اسبانيا وشمال افريقية ومصر كانت لا تزال مستقلة ، لكن تهـــديد القرامطة فى شبه الجزيرة العربية كان قد زال فى النهاية ، ومن دمشق الى بخارى كان السلاجقة قد توطد سلطانهم بلا منازع . وبعد تأمين الجبهة الداخلية على هذه الصورة لم يضيع الب ارسلان وقتا فى مد رقعـــــــة أملاكه على حساب الامبراطورية البيزنطية . فزحف بعـــد سنة من ولايته العرش الى داخـــل ارمينيا المسيحية واستولى على عاصمتها آنى . وفى عام ١٠٧١ هزم الروم عند منزيكرت فى أرمينيا وأسر الامبراطورالبيزنطىرومانوس‌ديوجنيس . وعندما سيق أمام آسره سئل الامبراطور ما الذى كان يفعله بالب ارسلان لو انعكست الآية ، فجاء الرد الصريح بهذه العبارة : « كنت أجلدك حتى الموت » . والواقع أن هذه الصراحة البالغة جعلت السلطان السلجوقى يوافق على الابقاء على حيـــاة رومانوس فى مقابل فدية ضـــخمة وجزية سنوية ، بالاضـــــافة الى تسليم جميع الأسرى المسلمين لدى الروم .

وقد بدأت القبائل السلجوقية بعد ان ازاحت الحكم البيزنطى عن جزء كبير من آســـيا الصغرى تنتقل من الشرق وتستقر فى الأراضى التى غزوها حديثا . وهكذا ولأول مرة أصبحت هـــذه الأقاليم منضـــوية تحت لواء الاسلام ، ووضع الأساس لقيام الدولة التركية المسلمة فى العصر الحديث . ان غيرهم من الفاتحين والخلفـــاء والمسلمين من أمويين وعباسيين قد فتحوا واحتلوا مرارا مناطق كبرى من آسيا الصغرى خـــلال القرنين الثامن والتاسع ، ولـــكن مد الحروب كان يردهم دائمـــا الى الخلف . وفضلا عن ذلك فان الجيوش العربية لم تكن

تجد الفرصة ولا كانت لديهـا الرغبة فى الاسـتقرار فى هذه الهضاب المرتفعة الوعرة البعيدة عن الدفء والخصب فى الشام وفلسطين والعراق . أما الأتراك السلاجقة فقد هبطوا من أراضي موحشة تجتاحها الرياح فى تركستان ، وقد شعروا أنهم فى ربوع ديار آمنة فى المناخ البارد والجبال الوعرة فى آسيا الصغرى .

ولقد بدا ان الب ارسلان احب الأرض المرتفعة هو أيضا ، ففى خلال السنوات التسع من حكمه لم يزر بغداد قط وجعل عاصمته فى اصفهان بفارس . وفيها كان وزيره نظام الملك الفارسي المشهور ، وهو من أعظم رعاة العلم والمعرفة فى تاريخ الاسلام . فان نظام الملك هو الذى أسس « معهد النظامية » فى بغداد ، الذى أصبح نموذجا لكل معهد آخر للتعليم العالى فى العالم الاسلامى . وهو الذى أصلح التقويم الفارسى ، ووضع تحت رعايته عمر الخيام الشاعر الرياضى الفلكى الأشهر وساعده فى اخراج (رباعياته) وغيرها من المؤلفات . ولقد أخبرنا المؤرخ ابن خلكان ان نظـام الملك كان يجمع فى يديه مقـاليد السلطة كلها ، فى حين لم يكن الخليفة يملك شيئا ولم يكن له الا ان يجلس على العرش أو يتمتع بالصيد . ومهما يكن فان نظام الملك كان سلطة مؤثرة ومتحضرة ، فقد القى شعاعا ثقافيا باهرا فوق المشهد المظلم لتدهور العباسيين وانهيارهم .

ولقد توفى نظام الملك مع (ملك شـاه) الخليفة التالى فى عام واحد ، ١٠٩٢ ، الأول بيد شيعى متعصب والثانى بالسم . وثار نزاع على السلطة بين أبناء (ملك شاه) الثلاثة ، وما لبث الصيف المشرق الزاهى الذى نعمت به الامبراطورية تحت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأول

ان انحسر سريعا الى شتاء من الانقسام والهزيمة . وعلى الرغم من ان السلجوقيين استمروا يسيطرون على الخلافة مدى قرن آخر ، فان الامبراطورية التى وحدها طغرل والب أرسلان سرعان ما آذنت بالزوال . فقد انفصلت الولايات الشرقية ، الى غير ما عودة قط ، وفى نفس الوقت زحف الصليبيون من الغرب . وبعد ذلك بمئة وخمسين عاما هبطت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو من الشرق ووضعت نهـــــاية لاحتضار البيت العباسي الذى كان يعالج سكرات الموت .

ولقد كان مقدرا أن يعرف العالم الاسلامى فيما بعد مرحلتين من المجد والنجاء من الغزوين المسيحى والوثنى المغولى . كان مقـــدرا ان يسطر كل من صـــلاح الدين والسلطان المملوكى بيبرس صفحتيهما المشرقتين فى تاريخ الاسلام . ولكنهما استمدا من مصر لا من بغداد القوة التى ردت الصليبيين على أعقابهم وصدت المغول من بمدهم . ذلك ان بغداد قد انتهى دورها كفيصل فى الاحداث ، واصبحت الآن مجرد متفـــــرج عليها فيما بقى من الامبراطورية العباسية .

فهرس

القسم الأول :

القسم الثانى :

كتاب الهلال القادم :

الجزء الثانى من :

العـــرب
تاريخ وحضارة

●

تاليف : انتونى ناتنج

يصدر ٥ فبراير القادم

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص • ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هـذا الكتاب

انتونى ناتنج سياسى انجليزى اشتهر بالصدق والوقوف الى جانب الحق والصلابة فى الرأى ، وعندما وقع الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ احتج على ذلك العدوان واستقال من وظيفته وكان وزيرا للدولة للشئون الخارجية فى وزارة انتونى ايدن ، ولم يغفر اليهود له موقفه الى جانب مصر والعرب فطاردوه ولكنه لم يحفل لهم وأصدر كتابه « العرب » وقص فيه تاريخ العرب بأسلوب سهل موجز ممتع بادىء من العصر الجاهلى ومنتهيا الى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ .

وفى الفصول الخاصة بالعصر الحديث وقف ناتنج ا[illegible]
العربى وكشف مخططات اليهود بالتآمر مع قوات الإس[illegible]
فلسطين من أرض العرب وتسليمها لليهود بالخداع وال[illegible]
فى أسلوب علمى دقيق مؤيد بالوثائق لهذا اختار الهلا[illegible]
ليهديه الى قراء العربية على جزءين .

وهذا هو الجزء الاول .

٢٠ ق[illegible]